التَّكريمُ الحَقيقيّ لِلعذراء مريم

لِلقديس لويس ماري غْرِنْيون دي مُنفور

مقدمة

إنَّ مؤلِف هذا الكتابِ هو لويس ماري غْرينيون المولودُ في مدينة مونفورت الفرنسية، في ٣١ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٧٣. أَظهر لويس منذُ نعومةِ أظافِرِه، غرامًا بَنَويًا بالعذراء مريم، فأَضافَ اسمَ مريم إلى اسمه. دَرَسَ على يد الآباء اليسوعيين في مدينة رين. ثم واصل دراستَه العاليَة في جامعة السوربون الباريسية الشهيرة، وفي كلّية سان سولْپيس، حيث تشرّبَ بمبادئ مُعلمي هذه الكلية اللاهوتية المعروفة، وطالَع كلَّ كتابٍ وَقَع بين يديه يتكلمُ عن مريمَ العَذراء، وكان مولَعًا بالحَج إلى مَزاراتها. رُسِمَ كاهنًا في ٥ يونيو/ حُزَيران من عام ١٧٠٠ في باريس.

بعد سنتين من رسامته، أَسَّس رهبنةً نسائيةً أَسْماها «بنات الحكمة»، وأُخرى للكهنة المرسَلين لنشرِ التكريم المريمي دعاها «جمعية مريم». عَيَّنَهُ البابا أَكليمَندُس الحادي عشر عند زيارتِه لروما، مُرسَلًا رسوليًّا. وَضَعَ العقائدَ الدينية المسيحية في ٢٣٤٠٠ بيتَ شِعر. أَلّف كذلك أناشيدَ روحية كثيرة، وكَتَبَ قوانين رَهبنَتَيْهِ: النسائية والرجالية. وعن تكريم مريم، وضع أربعةَ كُتُب تَقَويّة بليغة. سَمَّى الأولَ «الحكمة الأزلية»، والثاني «سرّ الوردية»، والثالث «سرّ مريم»، والرابع هو كتابُنا هذا الشهير، الذي فُقِدَت مخطوطتُه مدةَ ١٤٠ سنة، حتى عُثر عليها عام ١٨٤٢، وعنوانُها «التكريم الحقيقي للعذراء مريم».

يُظهِرُ المؤلفُ في كتابه هذا، كلَّ ما أُوتيَ من الحب البنوي لمِلكتِه السماوية، بطريقةٍ مُبَسّطة، تَأخذُ بمجامعِ القلب. غايتُه الحقيقية هي جَلْبُ الناسِ إلى يسوعَ عن طريق مريمَ، أَي بتكريس الذات لهذه الأُمّ القديسة. ويدعو إلى هذا التكريس بلا تحَفُّظٍ، وإلى تقديم كلِّ ما لنا، لمريَم مُعلِنين ذاتَنا عبيدًا لها، ويُسَمّي هذه الممارسة: «عبوديةَ الحبِّ المقَدسة».

تُوفي لويس غْرينيون في ٢٨ أبريل/ نيسان سنة ١٧١٦ ، وأعلَنَتْه الكنيسةُ طوباويًّا عام ١٨٨٨ ، ثم في ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٤٧ رفَعه البابا پيوس الثاني عشر إلى مَصاف القديسين.

كانَ الأب إدوار سَلزاني اليسوعي قد لَخّص هذا الكُتيِّب بالعربية ونشرَتْه المطبعةُ الكاثوليكية في بيروت عام ١٩٠٨ . مع الأسف الشديد، حتى هذا الموجَز قد نفِدَ من المكتبات منذ عشراتِ السنين. نظرًا لقيمتِه الروحية الثمينة، قُمتُ منذ سنواتٍ بترجمةٍ كاملةٍ له، ولم

يُسْعِدْني الحظ بِنَشْرِه حتى الآن. والآن أُقدِّمه بكل غبطةٍ واعتزازٍ لإخوتي وأخواتي أَبناءِ مريم ليُروي عطشَهم، ومُقَدِّمًا غذاءً روحيًّا دَسِمًا.

هذا ولمزيدٍ من الفائدة وكإطارٍ رائع للصورة التي يرسمُها وَرَعُ القديس غْرينيون عن العذراءِ مريم، أَضعُ كتَوطئةٍ، الفصلَ الثامن من الدُّستور العقائدي حول الكنيسة («نورٌ لِلأُمم»)، كما جاء في أعمالِ المَجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، ترجمة دار العالم العربي لعام ١٩٦٦.

المطران كوركيس كرمو

رئيس أساقفة الموصل على الكِلدان

من المَجمع الڤاتيكاني الثاني

الفصل الثامن من الدُّستور العَقائديّ حول الكنيسة «نورٌ لِلأُمم»:

الطوباوية مريم العذراء
أمُّ الله في سرِّ
المسيح والكنيسة

١ – تمهيد

مريمُ العذراء في سرِ المسيح

(٥٢) إنَّ الله الفائقَ الرحمةِ والحكمةِ، وقد شاء أن يتمَّ فداءُ العالم، لمَّا بلغ ملءُ الزمان، أَرسل ابنَه مولودًا من امرأة... لننالَ التَّبني (غلاطية ٤ / ٤ – ٥) . «ومن أَجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصِنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريمَ العذراء» .

سرُّ الخلاص الإلهي هذا يَتجلَّى لنا ويستمرُّ في الكنيسة، التي أقامها الربُّ كجسدِهِ. فالمؤمنون إذْ ينضمون فيها إلى المسيح بوصفِه الرأسَ ويشتركون مع جميع قديسيه، يجبُ عليهم وقبلَ كلِّ اعتبار، أن يُكَرّموا ذكرَى «المجيدةِ الدائمةِ بَتوليّتُها مريم، والدةِ الله وربِّنا يسوع المسيح» .

مريم العذراء والكنيسة

(٥٣) إنَّ مريمَ العذراء التي قَبِلَت، عندما بشّرها الملاك، كلمةَ الله في قلبها وجسدِها وحمَلَت الحياةَ للعالم، لَهي حقًّا، في اعتقادنا وفي تكريمِنا لها، أُمُّ الله والمخلِّص. وقد نالت الفداءَ بطريقةٍ ساميةٍ، نظرًا لاستحقاقات ابنِها واتَّحدَت به اتّحادًا وثيقًا لا ينفَصِم، وتقَلَّدَتْ هذا المنصبَ السامي وكرامةَ والدةِ ابنِ الله، ولذا فهي ابنةُ الآبِ المُفضَّلة بل وهيكلُ الروحِ القدس، قد فاقتْ بموهبةِ هذه النعمة الخارِقة، سائرَ الخلائقِ جميعِها، السماوية والأرضية، إلى حدٍّ بعيد. ولكنها ظلَّت في الوقت عينِه مرتبطةً بجميعِ البشر المفتقِرين إلى الخلاص لأنها من ذُرِّيّة آدم، وغَدَت «أُمًّا لأَعضاءِ المسيح لأنها عاونَتْ بالمحبة على أنْ يولَدَ في الكنيسة المؤمنون الذين هم أعضاءُ ذلك الرأسِ» (القديس أَغُسطينُس) .

ولذلك فإننا نُحيّيها كعُضوٍ فائقِ السُّموّ وفريدٍ في الكنيسة، ونَموذَجٍ ومِثالٍ أعلى لها في الإيمان والمحبة؛ والكنيسةُ الكاثوليكية، بإلهام من الروح القدس، تُكرّمها بتقوى الابنِ البارِّ لأُمِّه الحبيبة.

ما يَهدِفُ إليه المَجْمع

(٥٤) ومِن أجل ذلك، فإن المجمعَ المُقَدَّس، في عَرضِه لتعاليمِ الكنيسة، التي يُتمِّمُ فيها الفادي الإلهي الخلاصَ، يريد أن يوَضِّحَ بجلاءٍ وظيفةَ العذراء الطوباوية في سرِّ الكلمة المتجسّدِ والجسدِ السري، وأن يُبيّنَ واجباتِ الناس المفتَدين، نحو والدةِ الله، أُمِّ المسيح وأُمِّ البشر وأُمِّ المؤمنين خاصّةً، دون أن يَهدِف إلى عَرض التعليم الكامل عن العذراء مريم ودون أن يَقطع في المسائل التي لم يُجلِها بعد البحثُ جلاءً تامًّا.

إذًا فلا حَرجَ إذا احتفظت المدارسُ الكاثوليكية بالآراء التي تَعرِضُ فيها بحُرِّيَّة، عمّن لها في الكنيسة المقدسة المَنزِلةُ العليا بَعدَ المسيح والتي هي الأقربُ إلينا.

٢ – العذراءُ الطوباويةُ ومهمّتُها في تدبير الخلاص

أُمُّ المسيح في العهد القديم

(٥٥) إنَّ الأسفارَ المقدسةَ في العهدَين القديم والجديد، والتَّقليدَ المُكرَّم، تُبيّنُ بطريقة تتجلى أَكثرَ فأكثر مُهمّةَ أمِّ المُخلِّص في تدبير الخلاص وتَضَعُها للتأمل نُصْبَ أَعينِنا. فأَسفارُ العهدِ القديمِ تَصِفُ تاريخَ الخلاصِ كتمهيدٍ بطيءٍ لمجيءِ المسيح إلى العالم. وهذه الوثائقُ القديمة جدًّا، حَسبَما اعتادتِ الكنيسة أن تقرأَها وتفهمَها على ضوء الوحيِ التامِّ اللَّاحق، تَرسم لنا صورةً تزداد شيئًا فشيئًا، للمرأة أُمِّ الفادي وتُظهِر ملامحَ صورتِها هذه، تحت هذا الضوء، من خلال النُّبوّة، في الوعد الذي قُطِعَ لأَبوَينا الأوّلَيْن على أثرِ سقوطِهما في الخطيئة، بخصوصِ سَحْقِ الحيّة (راجع تكوين ٣/١٥).

وهي أيضًا العذراءُ ستَحبَلُ وتَلدُ ابنًا وسيُدعى عِمانوئيل (راجع اشعيا ٧/ ١٤، ميخا ٥/ ٢ – ٣، متّى ١/ ٢٢ – ٢٣). وهي التي تَبرزُ بين الودعاءِ والمساكين المختصين بالرب الذي يرجون منه الخلاصَ بثقةٍ فينالونه بهِ. وتمَّت الأزمنة أَخيرًا، بوصفها ابنةَ صهيون الفريدة، بعدَ طولِ انتظارِ

الوعد، وبها بَدأ التدبيرُ الجديدُ عندما أَخذ ابنُ الله منها طبيعةً بشريةً ليُعتِقَ الإنسانَ من الخطيئة بأَسرارِ جسده.

مريمُ في البشارة

(٥٦) وقد شاء أبو المراحمِ أَن يَسبِقَ التجسد رِضى الأمِّ المختارة؛ إِذْ كما أَنَّ امرأةً كانت سببًا لِجَلْب الموت، كذلك ستكون امرأةٌ سببًا لردِّ الحياة. وينطبق هذا القول بطريقة رائعة على أُمِّ يسوع التي أَفاضت على العالم الحياةَ عينَها المجدِّدة لِلكلّ، والتي زيّنَها الله بمواهبَ تُلائم وظيفَتها الساميةَ؛ فلا عَجَبَ أن يُجرى على لسانِ الآباء القديسين وصفُ أُمِّ الله بأنها كلِّيةُ القداسة ومنزَّهةُ عن كلِّ وصمةِ خطيئة، وكأنَّ الروحَ قد كوّنها وصاغَها خليقةً جديدة. وهذه عذراءُ الناصرة، التي تَزيَّنت منذ أَوّلِ لحظةٍ من الحَبَل بها بضياءِ قداسةٍ فريدةٍ، قد حيّاها الملاكُ المرسَلُ من قِبَلِ الله بأَنها: «ممتلئةٌ نعمةً» (راجع لوقا ١/ ٢٨)، وردَّت على الرسول السماوي بقولها: «ها أنا أَمَةُ الرب، فليكن لي حسَب قولِك» (لوقا ١/ ٣٨).

وهكذا فإنَّ مريمَ، بنتَ آدم قد أصبحت بموافقتها على كلمةِ الله أُمًّا ليسوع، وبانتقائها إرادةَ الله الخلاصيةَ من كلّ قلبِها، وبدون أن تَعوقَها أيّةُ خطيئةٍ، كرّست ذاتها كأَمَةٍ للرب تكريسًا مطلَقًا لشخصِ ابنِها ورسالتِه، خادمةً تحت أَمره ومعه سِرَّ الفداء بنعمةِ الله القادر على كلّ شيء. ولذلك فالآباء القديسون يعتبرون بحقٍّ أَنَّ مريم لم تكن مُجرَّدَ أداةٍ سلبية في يد الله، بل ساهمتْ في خلاص البشر بطاعة وبإيمانٍ حُرّ. وقد غدَتْ بطاعتها، على حدِّ قول القديس إيريناوس «سببَ الخلاص لذاتها وللجنس البشري بأَسره». وقد أيَّدَهُ في ذلك عددٌ ليس بقليلٍ من الآباء الأقدمين في مواعظهم بقولهم: «إنَّ عقدةَ مَعصيةِ حوّاء قد حُلَّت بطاعةِ مريم، وما عقدَته حواءُ العذراء بعدم إيمانها، حلَّته مريمُ العذراء بإيمانها» وبمقارنةِ مريم بحواء يَدعونها «أمَّ الأحياء» ويؤكّدون في أَغلب الأحيان أَنَّ «حواءَ سببُ الموت ومريم سببُ الحياة» .

العذراء مريم وطفولة يسوع

(٥٧) وهذا الارتباطُ في العمل الخلاصي بين مريمَ وابنِها يظهر منذ حَبَلِها البَتولي بالمسيح إلى وقت موته. فنراه أَوّلًا عندما قامت مريم مسرعةً لزيارة أليصابات. فحيَّتْها مُطوِّبةً لأنها آمنت بالخلاص الموعود به، وارتكض السابقُ فَرحًا في أَحشاء أُمِّه (راجع لوقا ١/ ٤١– ٤٥) . ثم بعد ذلك في الميلاد عندما أَظهرت والدةُ الله للرعاةِ والمجوس بكلِ فرحٍ ابنَها البِكر الذي لم يُنقِص من

تمام بتوليَّتِها بل كرّسها، ونراه أيضًا عندما قدّمَتْه في الهيكل إلى الرب تقدمةَ فقراء، وسمِعَتْ سِمعان يُبشِّرها في نفسِ الوقت بأَنَّ ابنَها سيكون هدَفًا للمخالَفة وأنَّ سيفًا سيَجوز في نفسِها حتى تُكشَفَ أَفكارٌ من قلوبِ كثيرين (راجع لوقا ٢/ ٣٤ – ٣٥). وعندما كان يسوع الصبي ضائعًا عن والديه وهُما يَطلبانِهِ بِتَوجُّعٍ، وقد وَجداه في الهيكل مُنصرفًا إلى ما هو لأبيه ولم يفهما ما قاله لهما. وكانت أُمُّه تحفظ ذلك كلَّه في قلبها لتتأملَ فيه (راجع لوقا ٢/ ٤١ – ٥١) .

العذراء مريم وحياةُ المسيح العَلَنية

(٥٨) وفي حياة يسوع العلَنية، تَظهر أُمُّه ظهورًا جلِيًّا: وأَولُ ما تظهر في عُرس قانا الجليل عندما أَخذَتْها الشفقةُ فحَمَلت بوِساطتِها يسوعَ المسيح على صُنْع أولى آياتِهِ (راجع يوحنا ٢/ ١– ١١). وفي أَثناءِ كرازته قَبِلَتِ الكلامَ الذي يُبيّن فيه أَنَّ الملكوت فوق كلّ اعتبار وفوق روابطِ اللحم والدم، وطَوَّب فيه من يسمعون كلمةَ الله ويحفظونها (راجع مرقس ٣٥/٣) (ولوقا ١١/ ٢٧– ٢٨)، كما كانت تفعل هي بأَمانة (راجع لوقا ٢/ ١٩ ،٥١). وهكذا سارت العذراءُ الطوباوية على طريق الإيمان محافِظةً بأَمانة على اتحادها بابنها حتى الصليب، حيث وقفت وقفةً لم تكن بمَعْزِلٍ عن تدبيرِ الله (راجع يوحنا ١٩/ ٢٥)، وتألَّمتْ مع وحيدها أَشدَّ الألم واشتركت بعاطفةِ الأُمّ في ذبيحتِهِ راضيةً عن حبٍّ بموتِ الضحيةِ المولودة منها؛ وأخيرًا سلّمها المسيح يسوع، وهو يموت على الصليب، كأُمٍّ لتلميذِهِ بهذه الكلمات: «يا امرأة، هذا ابنك» (راجع يوحنا ١٩/ ٢٦– ٢٧) .

العذراء مريم بعد الصعود

(٥٩) وبما أنه كان قد حَسُنَ عند الله أَلَّا يَكشفَ سرَّ الخلاص عَلَنًا قبل أَنْ يُفيضَ الروح الذي وعد به المسيح، فإننا نرى الرسلَ، قبل يومِ العنصرة، «مواظبين على الصلاة بنفسٍ واحدة مع النساء ومريم أمِّ يسوع ومع إخوتِهِ» (أعمال ١/ ١٤) . ونرى مريمَ أَيضًا تلتمس بصلواتها عطيةَ الروح الذي كان قد ظلَّلَها يومَ البشارة. وأَخيرًا في نهاية حياتِها على الأرض، انتقلتِ العذراء النَّقيّة، التي عُصِمَتْ من وَصمةِ الخطيئة الأصلية، جسدًا وروحًا، إلى المجدِ السماوي. وهكذا أَقامها الرب ملكةً على جميعِ الخلائق، لتكونَ اكثرَ تشابهًا بابنِها ربِّ الأَرباب (راجع الرؤيا ١٦/١٩) وقاهرِ الخطيئة والموت.

٣ – العذراء الطوباوية والكنيسة

مريم أَمةُ الرب

(٦٠) إِنَّ وسيطَنا وحيدٌ وِفْقًا لقَول الرسول: «إِنَّ الله واحدٌ والوسيطَ بين الله والناس واحدٌ، وهو الإنسانُ يسوعُ المسيح الذي بذَل نفسَه فداءً عن الجميع» (١ تيم ٢/ ٥– ٦). لكنَّ مهمةَ مريم كأمٍّ نحو البشر لا تَحجُب ولا تُنقِصُ البَتّة من وِساطة المسيح الوحيدة هذه، بل تُظهر قوَّتَها. فكلُّ تأثيرٍ خَلاصيّ للعذراء الطوباوية في البشر لا يَصدرُ عن ضرورةٍ ما، بل عن رغبة الله في ذلك وعن فَيضِ استحقاقات المسيح، نظرًا إلى وِساطتِهِ المتوقِّفِ عليها كلِّيّة هذا التأثير، والذي منها يستقي قوّتَه الكاملة؛ ولذا فهو لا يَحولُ البَتّة دون اتحادِ المؤمنين المباشِر بالمسيح بل يُؤيدُه.

(٦١) إِنَّ العذراءَ الطوباويةَ التي اختيرت أُمًّا منذ الأزل، حيث تقرر تجسد الكلمة، كانت على هذه الأرض، بتدبير العنايةِ الإلهية، أُمًّا حنونًا للفادي الإلهي، وشريكةً سَخية أكثرَ من الجميع، وأَمَةَ الربِّ المتواضعة. وهي إِذْ حَبِلتْ بالمسيح وولدَته وغذَّته وقدّمَته في الهيكل وتألمت مع ابنها المائِت على الصليب، قد اشتركت، بطريقة فريدةٍ للغايةِ، في عملِ المخلص بطاعتها وإيمانها ورجائِها ومحبتِها الحارة لتَرُدَّ إلى النفوس الحياةَ الفائقةَ لِلطبيعة. وقد غدَت لهذا السبب أُمًّا لنا في نِظام النعمة.

(٦٢) وأُمومةُ مريم في تدبير الخلاص تستمرُّ بلا انقطاعٍ منذ اللحظة التي أَبدَتْ فيها رِضاها بأمانةٍ يومَ البشارة، والذي حافظَتْ عليه بلا ترددٍ تحت الصليب، وإلى أن يَبلُغَ جميعُ المختارين إلى المجد الدائم. ولم تَتخلَّ عن هذه المهمة الخلاصية بانتقالها إلى السماء، اذْ إِنها بمواصلتها شفاعاتِها المتوافرة تنالُ لنا نِعَمَ الخلاص الأبدي، وتَسهرُ بمحبةِ الأمّ على إخوةِ ابنِها المتغرِّبين على الأرض وسطَ المخاطر والضيقات، حتى يَصلوا إلى الوطن السعيد. لأجل ذلك تتضرع الكنيسةُ إلى العذراء الطوباويةِ وتدعوها حاميةً ومُعينةً ومُساعدةً ووسيطةً. وهذه الألقاب يجب أن تُفهمَ بحيث لا تُقلِّل أو تَزيدُ شيئًا على كرامة المسيح وقُدرتِه بوصفه الوسيطَ الأوحد.

فما مِن خليقة يمكن أنْ تتعادلَ مع الكلمة المتجسد والفادي، ولكن كما أَنَّ كهنوتَ المسيح يَشترك فيه، بطُرقٍ مختلفة، الخدّامُ والشعبُ المؤمنُ، وكما أَنَّ صلاحَ الله الواحد يَفيض

حقًّا على الخلائق بصورٍ متباينة، فكذلك وِساطةُ الفادي الوحيدة لا تُستقصَى عن الخلائق بل تبعثُ فيهم تعاونًا مشترَكًا ومتباينًا ينبع من المصدر الأوحد.

والكنيسةُ لا تتردد في الاعتراف بهذه المُهمّةِ المَنوطة بمريم، كما أنها لا تزال تختبرُها وتعهَدُ بها إلى قلوبِ المؤمنين حتى يتمسكوا بالوسيطِ والمخلصِ تمسُّكًا أوثق مستنِدين إلى هذا العون، عونِ الأُمّ.

مريم قُدوةُ الكنيسة

(٦٣) زيادةً على ذلك فالعذراء الطوباوية مرتبطة بالكنيسة ارتباطًا وثيقًا في هبةِ ومُهمّةِ الأُمومة الإلهية، التي تتّحدُ بها مع ابنِها الفادي؛ كما أنها مرتبطةٌ بها في نِعَمِها ومُهمّاتِها الفريدة. ووالدةُ الله هي صورةُ الكنيسة، على نحو ما كان يُعلّمُه القديس أَمبروزِيُس، أي في نطاقِ الإيمان والمحبة والاتحاد التامّ بالمسيح. ففي سرِّ الكنيسة التي تُدعى هي أيضًا بحقٍّ أُمًّا وبتولًا، تأتي العذراء الطوباوية مريم في المقام الأول، قُدوةً ساميةً وفريدةً للأم وللعذراء.

وقد أَنجبَت على الأرض بإيمانها وطاعتها، ابنَ الآب عينِهِ، يُظلِّلُها الروحُ القدس ودون أن تعرفَ رَجُلًا، فكانت بمثابةِ حواءَ جديدةً وضعَت ثِقتَها، لا في الحية القديمة، بل في ملاكِ الله، بصورةٍ لا يُخامرُها أَدنى شكّ. وقد وَلَدتِ الابنَ الذي أَقامه الله بِكرًا بين إِخوةٍ كثيرين (رومية ٢٩/٨) وهم المؤمنون الذين تشترك العذراء، بحبِّها كأمٍّ، في ولادتِهم وتربيتِهم.

(٦٤) والكنيسةُ، التي تتأملُ قداسةَ العذراءِ العميقة والخَفيّة، وتقتدي بمحبتِها وتُتِمُّ بأمانة مشيئةَ الآب، تُصبح هي أيضًا أُمًّا بحفظِها كلمةَ الله حفظًا أَمينًا. لأنها بالكِرازة والعماد تَلِدُ إلى الحياة الجديدة غيرِ الفانية أَبناءً مولودين من الله بفِعل الروح القدس. والكنيسةُ بتولٌ تحفَظُ عهدَ العريسِ بأمانةٍ وطُهرٍ كاملَيْن، وهي على مثال أمِّ ربِّها تحافظُ على الإيمان والرجاءِ الوطيد والمحبة الخالصة.

فَضائل مريم قُدوةٌ للكنيسة

(٦٥) وإذا كانتِ الكنيسةُ قد بلَغَت في العذراءِ الطوباوية الكمالَ الذي يجعلها بلا كَلَفٍ ولا غَضَن (راجع أفسس ٢٧/٥) فإن المؤمنين لا يزالون يَسعَون بجِدٍّ إلى النُّمو في القداسة بتَغلُّبِهم على الخطيئة. ولذلك فإنهم يرفعون أَنظارَهم إلى مريم التي تتلألأُ كمثالٍ للفضائل أَمامَ جماعةِ المختارين قاطبةً. والكنيسةُ بتفكيرِها التَّقَويّ في شخصِ العذراء، وبتأملها بها على ضَوءِ الكلمة المتجسد، تزدادُ في التعمق في صميم سرِّ التجسد الإلهي، وتتماثل أَكثَر فأكثرَ بعريسِها. ومريمُ التي دخلتِ التاريخ حتّى الصميم وجمعت في شخصها عروضَ الإيمان الكُبرى فانعكست فيها، تَدعو المؤمنين بالمديح والإكرام الموجّه لها، إلى ابنها وذبيحتِهِ وإلى محبةِ الآب.

والكنيسةُ بِدَورها في سعيها إلى تمجيدِ المسيح، تُصبح أَكثَر شِبهًا بصورته السامية، ناميةً نُموًّا مُطْرَدًا في الإيمان والرجاء والمحبة، مبتغيةً في كلّ شيء إرادةَ الله عاملةً بها. ولهذا فالكنيسةُ في عملها الرسولي تتطلع بحقٍّ إلى تلك التي وَلدت المسيحَ الذي حُبِل به من الروح القدس ووُلد من العذراء، ليُولدَ المسيح وينموَ أيضًا في قلوب المؤمنين على يد الكنيسة. وكانتِ العذراء في حياتها مِثالًا لهذا الحب حبِّ الأُمّ الذي ينبغي أَنْ يحرِّكَ قلوبَ كلِّ المساهِمين في المُهِمّة الرسولية التي للكنيسة، ليتعاونوا في تجديد الناس.

٤ – تكريمُ العذراءِ الطوباويّة في الكنيسة

تكريمُ العذراء: طبيعتُه وأَساسُه

(٦٦) إنَّ مريمَ التي رُفِعت بنعمة الله، بعدَ ابنِها، فوقَ جميع الملائكة والبَشَر بوصفها أُمَّ الله الفائقةَ القداسة، وهي التي اشتركت في أَسرارِ المسيح، تُكَرِّمُها الكنيسة بحقٍّ تكريمًا خاصًّا. وقد كُرِّمتِ العذراء الطوباوية منذ أَقدمِ الأجيالِ تحت لقب «أمِّ الله» التي تحت ذيل حمايتها يلجأ المؤمنون ضارعين إليها في جميع مخاطِرهم وشدائدهم. وقد ازدادَ تكريمُ شعبِ الله لمريمَ ازديادًا عجيبًا بعد مجمع أَفَسُس بنَوعٍ خاصّ في نِطاق تبجيلِها ومحبتِها، والتَّوَسُّلِ إليها والاقتداء بها، مُحققًا بذلك كلماتِها التَّنبُّئِية «جميعُ الأجيال تُطوِّبني، لأنَّ القديرَ صنع بي العظائم» (لوقا ٤٨/١) . وهذا التكريم في الكنيسة في كلّ العصور، وإنْ كان فريدًا في نوعه، إلّا أنه لم يَختلفْ اختلافًا جَوهريًّا عن تكريم العبادة الذي نؤديه بالتساوي للكلمة المتجسد مع الآب والروح القدس، ويؤيده تأييدًا كُلِّيًّا.

والطرقُ المختلفة لتكريمِ أمِّ الله، والتي وافقَتْ عليها الكنيسة ضِمنَ حدودِ التعليمِ السليمِ والقويم، حسبَ ظروف الزمان والمكان وحسب مُيولِ عَبقرية المؤمنين وطِباعهم، تؤدّي، بينما تُكَرِّمُ الأُمّ، إلى أن يُعترفَ بالابن كما يجب وأن يُحبَّ ويَتمجَّدَ وتُحفظَ وصاياه، هو الذي «به وإليه خُلق الجميع» (راجع كولسي ١/ ١٥– ١٦)، والذي رَضِي الآبُ الأزليّ «أَن يَحِلَّ فيه المِلءُ كلُّه» (راجع كولسي ١٩/١) .

كَيفيّة تكريمِ العذراء والكلامِ عنها

(٦٧) إنَّ المجمعَ المقدَّس يَقصد أَنْ يُعلّمَ هذا التعليمَ الكاثوليكيّ، ويحِثَّ في الوقت عينِه جميعَ أَبناء الكنيسة على أن يَعضُدوا بسخاءٍ التكريمَ - ولا سيما الطقسي منه - نحو العذراء الطوباوية، وأن يُقدِّروا بوافرِ التقدير ما يمارسه المؤمنون من وسائل وأَعمالِ التَّقوى الموجَّهة إليها والتي أَوصت بها الكنيسة بسلطانها التعليميّ على مدى الأجيال، وأن يَحفظوا بوَرَعٍ ما تَقرَّرَ في العصور السابقة حولَ تكريمِ صورِ المسيح والعذراء الطوباوية والقديسين. والمجمعُ يُهيب باللاهوتيين والمبشِّرين بكلامِ الله أن يُحجِموا بحِرصٍ، عندما يتكلمون عن كرامة أمِّ الله الساميةِ القدر، عن كلّ غُلُوٍّ باطل، وكذا عن كلِّ تضييق مُفرِط. ولْيَنصرفوا بقيادةِ السلطةِ التعليمية إلى البحث في الكتب المقدسة وفي سِيَر الآباء القديسين والمعلمين، وفي طقوس الكنيسة وليُفسِّروا تفسيرًا صحيحًا مَهامَّ العذراءِ الطوباوية وامتيازاتِها التي تعود دائمًا إلى المسيح مصدرِ كُلِّ حقٍّ وكل قداسةٍ وكلِّ تقوى، ولْيَحرصوا على تجنُّب كلِّ قولٍ وكلِّ فعلٍ من شأنِهِ أَن يُضِلَّ الإخوة المنفصِلين، أو غيرَهم أَيًّا كانوا، حولَ تعليم الكنيسة الصحيح. ولْيَذكُرِ المؤمنون أَنَّ التقوى الحقيقية لا تقوم بالعواطف العميقةِ العابرةِ ولا بالاعتقادات الباطلة، بل تَصدرُ عن الإيمان الحقيقي الذي يدفعنا إلى الاعتراف بسُموِّ أمِّ الله وإلى الحب البَنَويّ نحو أُمِّنا، وإلى الاقتداءِ بفضائلِها.

٥ – مريم آيةُ الرجاء الأكيد والعزاء لشعبِ الله في غُربتِه

(٦٨) كما أَنَّ أمّ يسوع، الممجدة الآن جسدًا ونفسًا، هي صورةٌ للكنيسةِ وبدايةٌ لكَمالها في الدهر الآتي؛ فَعَلَى هذا النحو تسطعُ على هذه الأرض، وإلى أَن يأتيَ يومُ الرب (راجع بطرس ١٠/٣)، كآيةٍ لرجاءٍ أكيدٍ وعزاءٍ لشعبِ الله المغترِب.

(٦٩) وإنه لَمِن دواعي الفرحِ العظيمِ والعزاءِ لهذا المجمع المقدَّس أن يكونَ بين الإخوة المنفصلين أنفسِهم من يُقدِّمون لأمِّ الرب والمخلِّصِ الإكرامَ الواجب، ولا سيما عند الشرقيين الذين يتهافتون دائمًا على تكريمِ والدةِ الله الدائمةِ البتولية بحماسٍ حارٍّ وقلبٍ ورعٍ. فليتضرع بإلحاحٍ إذًا جميعُ المؤمنين إلى أمِّ الله وأُمِّ البشر، التي أحاطت بصلواتها الطلائعَ الأولى للكنيسة، والتي تسمو الآن في المجد على جميع الطوباويين والملائكة، لكي تَشفعَ لدى ابنِها في شَرِكة جميعِ القديسين، حتى أنَّ أُسَرَ الشعوبِ كلِّها، سَواءٌ الذين يَتحلَّوْن باسم المسيح أو الذين لم يَعرفوا مخلِّصَهم بَعدُ، يَتّحدوا بغبطةٍ وسلام ووئام في شعبِ الله الواحدِ لمجدِ الثالوث الأقدس غيرِ المنقسم.

(من المَجمع الڤاتيكاني الثاني- روما في ٢١ نوڤمبر/ تِشرين الثاني ١٩٦٤)

مقدمة المؤلف

جاء يسوع المسيح إلى العالم، بواسطة مريم العذراء، وسيملِكُ على العالم بوساطَتِها أيضًا. كانت مريمُ في حياتها محتجِبَةً كثيرًا، لذا دعَتْها الكنيسةُ بوحيٍ من الروح «الأُمُّ المُرْضِعَة»، أَيْ الأمُّ المُحْتَجِبَةُ الخَفيّةُ. وكان تَواضُعُها عميقًا لدَرجة أنَّها لم تكن لها رغبة مُتَواصلة أَقوى من بَقائِها على الأرض محتجبةً عن ذاتها وعن كلّ خليقة، لا يَعرفُ بها أَحدٌ إِلَّا الله وحدَه.

وقد حَسُنَ لله أَنْ يستجيبَ طلباتِها، ليجعلَها محتجبةً فقيرةً ومتواضعةً، في الحَبَل بها وولادتِها وحياتِها وأسرارِها، من قيامتِها وانتقالِها، أَمامَ كلِّ خليقةٍ بشرية. حتى إِنَّ أَهلَها ذاتَهم لم يعرفوها، ويتساءَل الملائكةُ فيما بينهم مِرارًا قائلين: «مَنْ هي هذه...» لأَن العَليَّ أَخفاها عنهم، ولم يكشفْ لهم عنها إلّا النَّزْرَ القليل.

سمحَ الله الآب أَلَّا تَجْتَرِحَ مريم في حياتها أية أعجوبةٍ تُبهر العيون، رغمَ مَنْحِهِ لها القدرةَ على ذلك. كما رَضِيَ اللهُ الابنُ بألَّا تتكلمَ مريم تقريبًا قَطُّ، رغمَ إشراكِها في حكمته، وأنَّها العروسُ الأمينةُ للروح القدس، فقد شاء أن يَحجِمَ الرّسلُ والإنجيليّون عن التَّحَدُث عنها، إِلَّا قليلًا على قدر ما كان ضروريًّا لمعرفةِ يسوع.

اِدَّخَرَ العَليُّ لذاتِه معرفةَ مريم وامتلاكَها، لأَنَّها عملُه الأَسمى. فهي الأُمُّ العجيبة للابنِ الذي طاب له أن يَتْركَها متواضعةً ويَخفيها في حياتها لِيُواري تواضعَها، فسمّاها «امرأة» (يوحنا ٢/٤؛ ١٩/٢٦) كأنها غريبة، بينما كان يُجِلُّها ويحبُّها أَكثر من جميع الملائكة والبشر. مريم هي «المُعين المختوم» (نشيد ٤/١٢)، وعروسُ الروح القدس الأمينة، لا يدخل إليها آخَر سواه. هي هيكلُ الثالوث الأقدس، ومقرُّ راحتِه، والمكانُ الأَسمى قُدْسيةً الذي يحتَلُّه الله في الكون، دون استثناء استوائِهِ على الكاروبين والسرافين، فهي المقامُ الذي لا يسمح لأَيّة خليقة مهما كانت نقية، دون امتياز عظيم، أَنْ تدخلَ إِليه.

أَقولُ مع القديسين، إِنَّ مريم هي الفِردَوسُ الأرضي لآدمَ الجديد، حيث تَجسّدَ من الروح القدس ليعملَ فيها عجائبَ لا تُدرَك، إِنها عالَمُ الله العظيم الإلهي، حيث المَحاسن والكنوز التي لا تُوصَف، فهي جودةُ العليّ، حيث أَخفى ابنَه الوحيد في أحشائِها، الذي هو أكثرُ سَموًّا وثَمنًا. يا لَلأُمور العجيبة الخفية التي أَتمَّها الله القدير في هذه الخليقة العجيبة، حتى التزمَتْ هي ذاتُها

أن تعترفَ رغم تواضعِها العميقِ أن تَهتِفَ: «صَنَعَ بي القويُّ عظائمَ...» (لوقا ١/٩). إن العالمَ لا يَعرفها، لأنه غيرُ قادرٍ وغيرُ أَهلٍ لها.

فاهَ القديسون بأمورٍ عجيبة عن «مدينةِ الله المقدسة» هذه. ولم يكونوا أكثرَ بلاغةً وسعادة، كما أقَرُّوا هم ذاتُهم، إلَّا عندما كانوا يتكلمون عنها. فيقولون بأنهم لم يرَوْا أَسمى من استِحْقاقاتِها التي رفعتها إلى عرشِ الأُلوهية. فلا يُقاس عرضُ مَحَبَّتِها الذي بَسَطَها أَكثرَ من الأرض، ولا تُفهمُ عظمةُ القُدرةِ التي لها حتى على الله نفسِه، ولا يُكشفُ عمقُ لُجَّةِ تواضعِها وفضائِلِها وسائرِ نِعَمِها. فيا لَلسموِّ الذي لا يُفهمُ ويا لَلسِّعة التي لا تُحصر، ويا لَلعظَمة التي لا تُقاس، ويا لَلقمّة التي لا يُمكنُ بلوغُها.

كلَّ يومٍ، يُكرَز ويُنشَر، من أَقصى الأرض إلى أَقصاها، ومن أَعلى السماواتِ إلى أَدنى الدَّرَكات عن مريم العجيبة. تَضطرُّ طُغْماتُ الملائكة التِّسعة وكلُّ البشر من أَي جنسٍ وسنٍّ وحالةٍ، صالحين كانوا أَمْ طالحين، وحتى الشياطينُ أَنفسُهم، شاؤوا أَمْ أَبَوا، أَن يُعطوا عن حقِّ الطوبَى لمريم. وعلى حدِّ قولِ القديس بوناڤِنتورا، إنَّ كلَّ الملائكة في السماوات يصرخون بلا انقطاع قائلين: «قديسة، قديسة، قديسة هي العذراء مريم أُمُّ الله» . ويُصلُّون يوميًّا ملايين ملايين المرات «السلام الملائكي»، منحَنين أَمامها، ومُلتَمِسين شرفَ أَمرِها. والقديس ميخائيل نفسُه، حسبَ قولِ القديس أَغُسطينُس، رغمَ كونِه أَميرَ البَلاط السماوي العامّ، هو أكثرُ غيرةً من الجميع في التقديم لها كلَّ نوعٍ من الإكرام، وهو مستعدٌّ دَومًا، لإيماءةٍ منها أَنْ يتشرَّفَ بخدمةِ أَحدِ عبيدِها.

الأرضُ بأَسرِها مملوءة من مجدِ مريم، لا سيَّما لدى المسيحيين، حيث تَتّخذُها دُوَلٌ كثيرة ومقاطعاتٌ وإبَرشيّات ومدُنٌ، شفيعةً ومحاميةً لها. هناك كاتدرائياتٌ عديدةٌ مكرَّسة لله على اسمِها، ولا توجدُ كنيسةٌ إلا وفيها مذبحٌ على شَرَفِها، ولا يَخلو صَقْعٌ أَو قُطْرٌ من إحدى صوَرِها العجائبية، حيث تَشفي أَنواعَ العاهات، وينالون كلَّ الخيرات. فكم من أخويّاتٍ وجمعيات على شرَفِها، وكم مِن رَهبنات باسمها وتحت رعايتِها، وكم من الإخوة والأخوات والرهبان والراهبات ينشرون مديحَها ويُذيعون مراحمَها، لا يوجد طفلٌ إلا ويتلعثم بالسلام لها، ويمدحها، ولا خاطئٌ رغم تَصلُّبِه ليس له ومَضةُ ثقةٍ بها، لا بل حتى الشيطان في الجحيم، رغم خوفِه منها، إلّا ويحترمها.

حقًّا بعد هذا يجبُ القولُ مع القديسين، بأَننا مَهما تحدثنا عن مريم، فذلك ليس بكافٍ أبدًا، لأنها لم تُمْدَحْ بعدُ كثيرًا، ولا عُظِّمَ شأنُها جدًّا، ولا أُكرِمَت وأُحِبَّت وخُدِمَت كفايةً. لا زالت تستحق أكثر مدحًا واحترامًا وحُبًّا وخدمة.

بعد هذا نقولُ مع الروح القدس، إنَّ «كلَّ مجدِ ابنةِ المَلِك هو من الداخل» (مز٤٥(٤٤)/١٤)، فإنَّ كلَّ المجد الخارجي الذي تُقدِّمه لها السماءُ والأرضُ ليس بشيء بالمقارنة مع المجد الذي تَقبلُه باطنيًّا من الخالق، ذلك المجدِ غير المعروف من خلائقه الصغيرة العاجزةِ عن اختراق أيِّ سرٍّ من أسرار الملك.

ثم لنُصرِّحْ مع الرسول: «لا العينُ رأَتْ ولا الأُذنُ سمعتْ، ولم يَخطرْ على بالِ بَشَر» (١كور٢/٩) جمالُ مريم وعظمتُها وسُموُّها. يقول يوحنا الدِّمَشقيّ عنها: «إِنَّها أُعجوبةُ أَعاجيب الطبيعة والنعمة والمجد». وإذا ما تريدُ فَهْمَ الأُمّ، يقول القديس أيوخير، اِفهَم الابنَ. إنها أمُّ الله المَغبوطة. فليَصمُتْ كلُّ لسان.

بلَذَّةٍ خاصّةٍ أَمْلَى عليَّ قلبي الكتابةَ عن مريم لتَبْيان أَنها غيرُ معروفةٍ حتى الآن كما يجب، وهذا هو أحدُ الأسباب التي من أَجلها ليس يسوعُ معروفًا كما يجب. فإنْ أَرَدْنا أن نُعرِّفَ العالمَ بمملكةِ المسيح، يجِبُ أيضًا التَّعريف بمملكة مريم، تلك التي وضعَتْه أَولًا في العالم، وستجعلُه أَيضًا أَنْ يُشرِقَ فيه ثانية.

أوّلًا- في ضرورة تكريمِ العذراء مريم

أُقِرُّ مع الكنيسة جَمعاء بأن مريمَ هي خليقةٌ مَحْضة، صدرَتْ عن يدَيِ العَليّ وتظل أَقلَّ من ذَرَّة، أو بالأَحرى هي لا شيءٌ إذا ما قارَنّاها مع جلالِه غيرِ المُتناهي، لأنَّه هو وحدَه هو «ذاك الذي هو» (خروج ١٤/٣). وبالنتيجة، إنَّ هذا الربَّ العظيمَ المستقلَّ دائمًا الكافي لذاتِه، لم يَحتَجْ ولن يحتاجَ مطلَقًا إلى مريم لإنجاز إرادتِه وإظهارِ مجدِه؛ يَكفيه أَنْ يريدَ ليعمَلَ كلَّ شيءٍ. ومع ذلك فبِافتراض الأمورِ في واقعِ حالِها، أَقولُ ما دامَ الله قد أرادَ بدءَ أَعمالِه الكُبرى وإنجازَها بواسطةِ مريمَ منذ خَلقِها، لِنُسَلِّمْ بأنَّه لن يُغيِّرَ خُطَّتَه إلى الأبد، لأنه إلهٌ، لا يُغيِّر شعائرَه أبدًا.

في استخدام مريم عند التجسُّد

لم يُعطِ اللهُ الآبُ وحيدَه للعالم إلَّا بواسطة مريم. رغم تَنهُّدِ الآباء واشتياقِ الأنبياء وقديسي العهد القديم، خلالَ آلافِ السنين، للحصول على هذا الكَنزِ، الذي لم تستحقَّه إلا مريم التي وَجَدت حُظوةً أمام الله بقوة صلواتِها وسُموِّ فضائلها.

قال القديس أَغُسطينُس: «كان العالمُ غيرَ أهلٍ لقَبول ابنِ الله مباشرةً من يدَيِ الآب، لذلك أَعطاه إلى مريم حتى يَقتبِلَه بواسطتها. تأَنَّس ابنُ الله لأجلِ خلاصِنا في مريم، وبواسطتِها صاغَ اللهُ الروحُ القدس منها وبواسطتها يسوعَ المسيح، بعد أنْ طلب رِضاها على يد أحدِ خُدّام بَلاطِه المُتقدِّمين».

إنَّ اللهَ الآب أَولَى مريمَ خصوبتَه قَدْرَ ما كان بوُسعِ خليقتِه المَحْضة استيعابَه، فأَعطاها القدرةَ على إنجاب ابنِهِ وسائرِ أعضاء جسده السِّرِّيّ. حلَّ الله الابنُ في حَشاها البَتولي، كآدمَ جديدٍ في فِردَوسِه الأرضي، ليبتهجَ فيها ويَجترحَ خِفيةً عجائبَ النِّعمة. إلهٌ متأَنِّس يجد حرّيتَه بجعْلِ ذاتِهِ أسيرًا في حشاها. يُشرِقُ قوّتَه في هذه الابنة الصغيرةِ التي حملَته، ووجد مجدَه ومجدَ أبيه بإخفاء سَنائِه عن كلّ الخلائق الأرضية ليكشِفَها لمريمَ، مَجَّدَ استقلالَه وجلالَه بخضوعِه لها، في الحَبَل به، وولادتِه وتَقدمتِه إلى الهيكل، وحياتِه الخَفيّة مُدّةَ ثلاثين سنة، وحتى في موته، الذي وجب أن تَحضُرَه، لِيُكمِّلَ معها ذبيحةً واحدة، وليُقرَّبَ برضاها للآبِ الأزلي، كما قُرِّبَ سابقًا إسحَق برِضَى إبراهيم لإرادةِ الله. إنها أرضعَته وغذَّته وأَعالَتْه وربَّته وقرّبَته ذبيحةً لأجلِنا.

يا لَلخضوعِ الإلهي العجيب، اللّامفهوم. إنَّ الروحَ القدس لم يسمحْ بأَنْ يبقى ذلك في الإنجيل محفوفًا بالصَّمت، رغم إخفائِه عنّا تقريبًا جميعَ الأشياء العجيبة التي قام بها الحكمةُ الإلهي في حياته الخفية، ليُبيِّنَ لنا قيمتَها ومجدَها اللامتناهي.

أَعطى يسوعُ المسيح المجدَ لأبيه السماوي بخضوعِهِ لأُمِّهِ ثلاثين سنة، أكثر مِمَّا كان يُعطيه له بتوبة كلِّ الأرض باجتراحِ أَعظمِ المعجزات. فيا لَلتَّمجيد العظيم المقدَّم لله بالخضوع لمريم إرضاءً له على مِثال يسوع مِثالِنا الأَوحد.

لو فَحصنا عن كَثَب، بقيّةَ حياةِ يسوع المسيح، لَرأينا أَنه أراد بدءَ معجزاتِه بواسطة مريم. قدّسَ يوحنا في أَحشاء أمِّه أليصابات بكلمة مريم، إذْ حالما تكلَّمت، تَقدَّسَ يوحنا. وهذه أَولُ أُعجوبةٍ له وأعظمها في حقل النعمة، كما كان تحويلُه الماءَ إلى خمرٍ في عُرْس قانا، على طَلَبِها المتواضع، أُولى أعاجيبِه الطبيعية. بدأَ وواصَل معجزاتِه بواسطة مريم، وسيواصلُها حتى انتهاء الدهور.

لمّا كان الروح القدس عقيمًا في الثالوث، أَيْ أنه لا يُصدِر أُقنومًا إلهيًّا آخر، صار مُخْصِبًا بواسطة مريم عروسِه، فأَصدَر معها وفيها ومِنها أَسمى أَعمالِه، أَعني الإلهَ المتأنِّس. ويُصدِر كلَّ يومٍ وحتى نهاية العالم، المختارين وأَعضاءَ جسدِ هذا الرأس المعبود. وعليه، فكُلَّما يَجِد أكثرَ مريمَ، عروسَه المحبوبة وغيرَ المنفصلة، في نفسٍ، تزداد فعاليَّتُه وقدرتُه على إصدار يسوع في تلك النفس وهذه فيه. ومع ذلك لا نريد القولَ بأَنَّ العذراءَ مريم تُعطي الخصوبةَ للروح، كأنّه ليس له ذلك من ذاته، لأنّه طالَما هو إلهٌ فله الخصوبةُ والقدرةُ على الإصدار، مثلَ الآب والابن، رَغمَ أَنه لا يُفعِّل هذه القُدرة، ولا يُصدر أُقنومًا إلهيًّا آخَر؛ ولكنْ أَعني بأنَّ الروحَ يُفعِّل خصوبتَه، بواسطة مريم التي يريد استخدامَها رغم عدم حاجتِه إليها، فيُصدر يسوعَ المسيح وأعضاءَه فيها وبواسطتها. إنهُ سرُّ النعمة اللامعروف حتى مِن أَفْقَهِ المسيحيين وأكثرِهم روحيَّةً.

في إرادة الله استخدامَ مريم في تقديس النفوس

إنَّ الخُطَّةَ التي اتَّخَذَها الله في أقانيمه الثلاثة في التجسد وفي مجيء يسوع المسيح الأول، يحافظ عليها دائمًا في الكنيسة بِشَكلٍ غير منظور، وسيُحافظ عليها حتى منتهى الدهور عند مجيءِ يسوع الثاني.

جَمَعَ الله الآب كلَّ المياه وسمّاها بحرًا، وجمع كلَّ نِعَمِهِ ودعاها مريم. لهذا الإله العظيم كنزٌ أو مخزنٌ غنيٌّ جدًّا، أَودع فيه كلَّ ما له من جميلٍ ساطعٍ ونادرٍ وثمينٍ، حتى ابنَهُ ذاتَه. وما هذا المستودعُ اللامحدود إلَّا مريم، التي لقَّبها القديسون، كنزَ الرب، والتي من امتلائِها أَثرى الناس.

شاركَ الله الابنُ أُمَّهُ في كلّ ما اكتسبه في حياته ومماته من استحقاقات لامتناهية وفضائلَ عجيبة، وأقامَها وكيلةً على ما أَعطاه له أَبوه إرثًا. فبواسطتها يوزّعُ استحقاقاتِه على أَعضائه ويشركُهم في فضائله، ويقسّمُ عليهم نِعَمَه، فهي قناتُه السرية وجَدْوَلُه الذي يُجري فيه كلَّ مراحمه بلطفٍ وغزارة.

حَبا اللهُ الروحُ القدس مريمَ عروسَه الأمينة بمواهبه ونِعَمِه لِمَن تريدُ وقَدْرَ ما تريد وكيفما تريد، وحينما تُرِيدُ. فلا يَمنح للبشرية أَيَّةَ هِبةٍ سماوية إلَّا ويجعلها تمرُّ بين يديها البتوليَّتَيْن. لأنَّ هذه هي إرادةُ الله الذي أَرادَ أَن يكونَ لنا كلُّ شيءٍ بواسطةِ مريم. إذْ هكذا يجعلُها العليُّ غنيةً ومتساميةً ومكرَّمةً، تلك التي جعلت ذاتَها وكلَّ حياتها فقيرة متواضعة ومختفية، إلى حدِّ المُلاشاة. هذه هي شعائرُ الكنيسة والآباءِ القديسين.

لو كُنْتُ أُخاطب نفوسَ هذا العصر القوية، لَكنتُ أُثَبِّتُ بالتفصيل كُلَّ ما أقوله ببساطة، مستندًا إلى الكتاب المقدس والآباءِ القديسين، ذاكرًا النصوصَ الأصلية ومؤكِّدًا بالبراهين الدامغة العديدة، التي يمكن الاطّلاعُ عليها لدى الأب بواريه الذي سَرَدَها مُطوَّلًا في كتابه «الإكليل الثلاثي للعذراء القديسة»؛ ولكن إذْ أَتكلم خاصة مع الفقراء والبسطاء ذَوي الإرادة الصالحة، الذين لهم إيمان أَقوى من العُلماء ويؤمنون ببساطة وباستحقاقٍ أَكثر، أَقتصرُ على إعلان الحقيقة لهم دونَ التوقف لسردِ النصوصِ الأصلية التي لا يَفقَهونها، ومع ذلك فإني أَسردُ نُتَفًا منها دون تَصنُّع.

إنَّ النعمةَ تُكمِّلُ الطبيعة، كما أَنَّ المجدَ يكمّل النعمة. وإنه لَأَكيدٌ بأَنَّ ربَّنا في السماء لا يزال كما كان على الأرض، أَيِ ابنَ مريم. وبالنتيجة، لا يَزالُ محافظًا على خُضوعٍ وطاعةٍ أَكملِ البَنين نحو خيرِ الأُمّهات. بَيْدَ أَنه يجبُ الاحتراسُ من اعتبار هذا الخضوعِ تنازلًا أو عدمَ كمالٍ، في يسوع المسيح. لأَنَّ مريم بما أَنها أَدنى من ابنها يسوع بِشَكلٍ لامتناهي، لأَنَّه إله، كما تأمُرُ الأُمّ الأرضية ابنَها الذي هو أدنى منها. وبما أَنَّ مريمَ قد تغيَّرتْ تمامًا في الله بالنعمة والمجد، الذي تَغيّرَ جميعُ القديسين فيه، لِذا لا تسأل ولا تريدُ ولا تعمل أَمرًا مخالفًا لإرادة الله الأزلي اللَّامتغير. وعليه عندما نقرأ مثلًا لدى القديسين بِرنار أو بِرناردينو أو بوناڤِنتورا أو... إلخ، بأنَّ كلَّ شيءٍ في

السماء وعلى الأرض، وحتى اللهَ ذاتَه، هو خاضعٌ للعذراء الكُلِّيّةِ القداسة، يَقصدون بذلك بأنَّ السُّلطةَ التي أَراد الله منحَها لها، هي عظيمةٌ بمقدارٍ بِحيثُ إَنها تَبان كأنَّ لها سلطةَ الله ذاتِه، وأَنَّ صلواتِها هي قديرةٌ للغاية عند الله، فتظهر مثلَ أوامر لدى جلالتِه، فلا يقاوم أَبدًا صلاةَ أُمِّه العزيزة ، لأنها متواضعةٌ دائمًا ومُطابِقة لإرادته.

إذا كان لصلاة موسى قوةٌ حتى تزيلَ غضبَ الربِّ العَليّ اللامتناهيةِ رحمتُه عن بني إسرائيل، حتّى إِنه لم يقدرْ أنْ يقاومَه، وكان يطلبُ إليهِ أنْ يتركَه يغضَب ويعاقِبُ الشعبَ العاصي، فكم يجبُ التفكير بأَوْلَى حُجّةٍ عن فاعِلية صلاةِ مريم المتواضعة أُمِّ الله، المباركة التي تَفوقُ صلواتِ وتشفُّعاتِ كلِّ الملائكة والقديسين في السماء وعلى الأرض؟

تأمرُ مريم في السماء الملائكةَ والطوباويين، وكمكافأةٍ لتواضعِها العميق، منحَها الله القدرةَ بمَلءِ العروش الفارغة التي طُرِدَ منها الملائكة الجاحدون والساقطون بسبب كبريائهم. فشاء العَليُّ الذي يرفع المتواضعين (لوقا ٥٢/١) أن يجعلَ السماء والأرض والجحيم تَخضع لأوامر مريم المتواضعة، التي أَقامَها ملكةً على السماء والأرض، وقائدةً لجيوشه وأمينةً على كنوزِهِ، ومُوزِّعةً لنِعمِه، وصانعةً الأعاجيبَ العظيمة، وفاديةً للجنس البشري ووسيطتَه، ومُبيدةً لأعدائِه، والمشارِكة الأمينة لعظائمه وانتصاراته.

يُريد اللهُ الآب أنْ يجعلَ له أبناءً بواسطةِ مريم حتى نهايةِ العالم، قائلًا لها: «أُمكُثي في يعقوب» (سيراخ ٨/٢٤)، أَي اِجعَلي مسكَنَك ومقامَك في أبنائي ومختاريَّ الممثَّلين في يعقوب، وليس في أَبناء الشيطانِ المرذولين المَرموزِ إليهم بِعيسو.

وكما أنه يوجد في الولادة الطبيعية أَبٌ وأُمٌّ، فهكذا أَيضًا في الولادة الروحية الفائقة لِلطبيعة، يوجد أَبٌ وهو الله، وأُمٌّ وهي مريم. فكلُّ أبناءِ الله الحقيقيين والمختارين لهم اللهُ مثلُ أبٍ ومريم كأُمٍّ. ومن لا يتَّخذ له مريم أُمًّا، فليس له في الله أَبًا. ليس اللهُ أَبًا للمرذولين والهَراطقة والمنشَقّين الذين يُبغضون أو يرذُلون أو لا يُبالون بالعذراء مريم، ولا مريم هي أُمٌّ لهم، لأنّها لو كانت حقًّا أُمَّهم لَأَحبّوها واحترموها، كما يفعل كلُّ ابنٍ حقيقيٍّ باحترامِ ومَحبة أُمِّه التي أعطَته الحياة.

هذه هي العلامةُ المعصومة عن الغَلط والتي لا يُمكنُ الارتيابُ فيها، للتمييز بين هَرطوقيٍّ أو رجلٍ ذي تعليمٍ فاسد ومرذول، وبين المختار، وهي أَن الأولَ يحتقرُ ولا يبالي بالعذراء الكُلِّيّةِ

القداسة، مجتهدًا بأقوالِه ومِثالِه أن يُنقِصَ، خُفيةً أو عَلنًا، وأَحيانًا بحُجَجٍ لامعة، الإكرامَ لمريم ومحبتَها. لِلأسف، إنَّ الله لم يَقلْ لمريم، أن تعملَ في مثل هؤلاء مسكَنَها، لأَنَّهم أَمثالُ عيسو.

يريد اللهُ الابنُ أن يَصوغَ ذاتَه في أَعضائه، وإذا ما جازَ القولُ، أن يتجسَّدَ كلَّ يومٍ فيهم، بواسطة أُمِّهِ العزيزة، فيقول لها: «رِثي في إسرائيل» (سيراخ ٨/٢٤) كما لو أراد القول: إنَّ الله الآب أعطاني جميعَ شعوبِ الأرضِ ميراثًا، وكلَّ البشر الصالحين والطالحين والمختارين والمرذولين، فسأَقودُ بعضَهم بقضيبٍ من ذهب وغيرَهم بقضيب من حديد. سأكون أَبًا ومحاميًا للبعض، ومنتقمًا عادلًا للآخرين، وحاكمًا للجميع. وأما أنتِ يا أمي، فلن يكونَ ميراثُكِ ومُلكُكِ إلا المختارين. وكالأُمِّ الصالحة سوفَ تَلِدينَهم، تُغذِّينَهم وتُربّينَهم، ومثلَ ملِكتِهم ستقودينهم وترعَيْنَهم وتَذودين عنهم.

«إنسانٌ وإنسانٌ وُلد فيها» (مز٨٧(٨٦)/٥)، يقول الروح القدس. فحسب أوريجانُس والقديس بوناڤِنتورا، إنَّ الإنسانَ الأول الذي وُلد من مريم هو الإنسانُ الإله، يسوعُ المسيح، والثاني هو إنسانٌ مَحض، ابنُ الله ومريم، بالتَّبنّي. فإنْ كان يسوعُ المسيح، رأسُ البشرية، قد وُلِد منها، فالمختارون الذين هم أَعضاءُ هذا الرأس، يجب أَنْ يولَدوا منها أيضًا كنتيجة ضرورية، لأَنّه لا يمكن أن تُنجِبَ نفسُ الأُمّ رأسًا بلا أعضاء، ولا أعضاءً دون رأس، وإلا يكون مَسخًا في الطبيعة. هكذا أيضًا في حقل النعمة، يولدُ الرأسُ والأعضاء من أُمٍّ واحدة، فإذا وُلد عُضوٌ لجسدِ يسوع السِّرّي، من أُمٍّ أخرى، غير مريم التي أَنجبت الرأس، فلن يكونَ هذا لا عُضوًا ليسوع ولا منتخبًا منه، بل سيكون مَسخًا في حقل النعمة.

ثم بما أَنَّ يسوعَ المسيح هو الآن كما في الماضي، ثَمَرةُ مريم، كما تُرَدِّدُ ذلك السماءُ والأرضُ أَلفَ وأَلفَ مرةٍ كلَّ يومٍ «مباركةٌ ثمرة بطنِكِ يسوع» ، فإنه لَأكيد أيضًا بأنّ كلَّ إنسانٍ، وخصوصًا مَنْ يمتلكُ يسوع، يُصبِح هو أيضًا ثمرةَ مريم وعملَها، كما هو كلُّ العالم بِالعموم. بحَيثُ إنه إذا كان يُمكن أَن يقولَ بجُرأَةٍ أحدُ المؤمنين بيسوع المسيح والمهذَّبي القلب، «الشكرُ الجزيل لمريم لأنَّ كلَّ ما أملِكه هو ثمرتُها ومن مفعولها وبدونها لَما كنتُ أَحصل عليه» ، لِذا يمكن لمريم أن تقولَ بدورِها أكثرَ مما كان يقوله القديس بولس: «الذين أَلِدُهُم ثانية، إلى أنْ يُصاغَ المسيح فيكم» (غلاطية ١٩/٤) أَيْ أَلِدُ كلَّ يومٍ أبناءَ الله، إلى أنْ يُصاغَ يسوعُ المسيح ابني فيهم في عمرٍ كامل.

يكتبُ القديسُ أَغُسطينُس بهذا الخصوص، هذه الكلمات الذهبية: «لكي يَصير كلُّ المنتخَبين مطابِقين لصورة ابنِ الله، فإنهم يَختفون في هذا العالم في أَحشاء العذراء الكليةِ القداسة حيثُ تَحرسهُم وتغذيهم وتربيهم وتنميهم هذه الأُمُّ الصالحةُ إلى أَنْ تَلِدَهم للمجد، بعدَ

المماتِ. في ذلك اليومِ الذي يُصبِحُ حقًّا يومَ ميلادِهم، كما تُسمّي الكنيسة موتَ الصديقين» . فيا لَسرِّ النعمة غيرِ المعروف من المرذولين والمعروفِ قليلًا من المنتخَبين.

يريد الله الروحُ القدس أن يصوغَ المختارين في مريمَ وبواسطَتِها، فيقول لها: «ألقي الجذورَ في مختاريَّ» (سيراخ ٨/٢٤) ، أي أَلقي يا عروستي الحبيبة، جذورَ جميع فضائلِك في مختاريَّ، لكي يتقدموا من فضيلة إلى أُخرى، ومن نعمة إلى نعمة. إني وجدت سرورًا عظيمًا فيكِ، عندما كنت على الأرض حيث مارستِ أَسمى الفضائل، وكم أَشتاق الآن أَيضًا أَنْ أَجدَكِ على الأرضِ دون أَنْ تتركي السماء، فصوِّري ذاتَكِ في مختاريَّ لأرى فيهم بلطفٍ، أُصولَ إيمانِك الذي لا يُغلَب، وتواضعَكِ العميق، وأمانتَك التامّةَ وصلاتَك السامية ومحبّتَك المتَّقِدة ورجاءَكِ الوَطيد؛ بكلمةٍ: لِأرى كلَّ فضائلِك. إنكِ عَروسي الأمينة دومًا، الطاهرة والخَصبة، فليُعطِ لي إيمانُكِ مؤمنين، وطهارتُك عَذارَى، وخصوبتُك مختارين وهياكل.

عندما تُلقي مريم جذورَها في نفْسٍ ما، فإنها تُصدِر فيها عجائبَ النعمة التي هي وحدَها تقدر أَن تُصدرَها، لأنها هي وحدَها العَذراء الخصيبة التي لم يصِرْ لها شبيهٌ في الطُّهر والخصوبة. ولن يصيرَ لها قَطُّ.

أَعطت مريم مع الروح القدس، أَعظمَ ما يمكن وجودُهُ وهو الإلهُ الإنسان يسوعُ المسيح. وستقدِّم بالنتيجة أَعظمَ الأشياء التي يمكن أن تكونَ في الآونة الأخيرة. إنَّ تربيةَ وتهذيبَ القديسين العِظام الذين سيوجَدون في نهاية العالم، هي محفوظة لها، لأنّه لا يوجَد إِلَّا هذه العذراء الخارقة لِلعادة والعجائبية التي تَقدر، باتّحادها مع الروح القدس أَنْ تعملَ أُمورًا خارقةَ لِلمُعتاد وعجيبة.

ولَمّا يَجدها الروحُ القدس في نفْسٍ ما، فإنه يطيرُ إليها، ويملؤُها تمامًا، مانحًا ذاتَه بفَيضٍ لها، وعلى قدر ما تُفسِحُ النَّفسُ المجالَ لمريم. إِنَّ أَحدَ الأسبابِ التي لأَجلها لا يعملُ الآن الروحُ القدس عجائبَ ساطعةً في النفوس، هو لأنه لا يَجدُ فيها اتّحادًا مَتينًا مع مريم.

مريمُ ملِكةُ القلوب

اقتبلَتْ مريمُ سلطةً كبيرة من الله على نفوس المختارين، لأنها بدون ذلك، لا تقدر أَنْ تقيمَ فيها كما أمرها الله الآب. فكيف تقدرُ أَنْ تُربّيَها وتُهذّبَها وتُغذّيَها وتَلدَها للحياة الأبدية كأُمٍّ روحية لهم، وهم إرثُها وحِصتُها؛ أقول كيف تَصوغُها في يسوع، ويسوع فيها، وكيف تُلقي جذورَ فضائلِها في قلوبها، إذا لم تَكُنْ لها سلطةٌ وحقٌّ عليها، نظرًا إلى النعمة الخارقة لِلعادة المُعطاة لها من القدير. لأنه بِمَنحِه لها قدرة على ابنه الوحيد والطبيعي، أَعطاها أيضًا القدرةَ على أبنائه بالتبنّي، لا فقط نظرًا إلى الجسد، الأمر الذي ليس بكثير، ولكن خاصَّة بالنظر إلى النفس.

فمريمُ هي ملكةُ السماء والأرض بالنعمة، كما أنّ يسوع مَلكُها بالطبيعة والاكتساب. إلّا أَنَّ مُلوكيةَ يسوع هي باطنية، حسب قوله: «ملكوتُ الله هو في باطنكم» (لوقا ٢١/١٧)؛ إذًا أيضًا مُلوكيةُ مريم هي أوّليًّا في داخل الإنسان، أَعني في نفسه، وهي مُمجدة رئيسيًّا في النفوس مع ابنها أكثر مما في كلّ الخلائقِ المنظورة الأُخرى. لذا بوُسعنا أن نُسميها مع القديسين «بمَلكة القلوب»

.

ضرورةُ مريم للخلاص عمومًا

طالما مريم هي ضرورية لله حسب الضرورة المُسمّاة افتراضية، أي لأنه هو أَراد ذلك، فتكون مريمُ أكثرَ ضرورةً للناس ليَبلُغوا غايتَهم. وعليه لا يجبُ خلطَ تكريمِ العذراء مع الإكرام المقدَّمِ للقديسين، الذي هو غيرُ ضروريٍّ ويمكنُ الاستغناء عنه.

برهَنَ العلَّامةُ سوارِس اليسوعي الوَرِع، بِشَكلٍ قاطع، ومع التقيّ يوسطُس ليبِس ملفان جامعة لوفان، وكثيرون غيرهما، مستنتجين ذلك من أَقوال الآباء ومن جملتِهم القديس أَفرام وأَغُسطينُس وكيرِلُّس الأورشليمي وجِرمانُس بطريرك القسطنطينية ويوحنا الدمشقي، وأنسِلموس وبِرنَردُو وبِرنَردينو وتوما الأَكويني وبوناڤِنتورا، بأنَّ تكريمَ العذراءِ مريم هو ضروريٌّ للخلاص وهو علامةُ الانتخابِ المعصومة، بينما عدمُ احترامِها ومحبّتِها، هو- حتى حسب إيكولُمبادُس وبعضِ الهراطقة الآخَرين - دليلٌ قاطع على الهلاك.

إِنَّ رموزَ وأَقوالَ الكتابِ المقدس تُثبِت ذلك، وشعائرَ وأَمثالَ القديسين تؤيد ذلك وهو: «إِنَّ إِكرامَكِ هو سلاحُ الخلاص المُقدَّم من الله» (يوحنا الدمشقي) . وبوُسعي هنا أن أُقدم قصصًا عديدة تُثبت هذه الحقيقة. منها ما جاء في أَخبار القديس فرنسيس الأَسيزي، عندما رأى - في انخطافٍ - سُلَّمًا عاليًا يَتصل رأسُهُ بالسماء، وعند نهايتِه واقفةٌ العذراء القديسة، ففهم

من ذلك بأنه كان يجب الصعود إلى السماء بواسطتها. ثم ما أتى في ترجمة القديس عبد الأحد، الذي كان يَكرز عن تكريم العذراء بتِلاوة الوردية، بالقرب من كَركَسون، بأنَّ العذراءَ القديسَةَ أَرغمت الشيطان الذي كان قد استولى على نفس هَرطوقي تَعيس، بأَن يُقِرَّ لِخِزيِه، بقوةٍ ووضوح، بحقائقَ كثيرةٍ ومُعَزّية تَخُصّ إِكرامَها، بحَيث إنه لا تُقرأ هذه القصة والخِطبة التي عَمِلها الشيطان مُرغَمًا، عن تكريم العذراء مريم، دون أَن تسيلَ من مَآقيهِ الدموعُ فَرَحًا، مَهْما كان الشخصُ قليلَ التكريم نحوها.

في أَنَّ إِكرامَ العذراء هو أَكثرُ ضرورةً للمَدعوّين إلى حالةِ الكمال الخُصوصية

إِذًا، بِما أنّ إِكرامَ العذراءِ مريم ضروريّ لكل الناس لِيَخلصوا، فهو أَكثر من ذلك بكثير للمَدعوين إلى حالة كمالٍ خصوصية. ولا أَظنُ أَنَّ أَحدًا يقدِرُ أَنْ يحصلَ على اتّحادٍ تامٍّ مع الآب وأنْ يكونَ أَمينًا كلّيًّا مع الروح القدس، بدون اتّحادٍ كبير مع القديسة مريم وخُضوعٍ تامٍّ لمساعدتها.

مريمُ وحدَها وجدَت الحُظوَة لَدى الله (لوقا ١/٣٠) بدون عونٍ من أَية خليقة أُخرى. أَمَّا الذين جاؤوا بعدها فلم يجدوا النعمةَ أمام الله إِلّا بواسطتها. كانت مريمُ ممتلئةً نعمةً عندما حيّاها جبرائيل رئيسُ الملائكة (لوقا ١/٢٨)، وفاضت فيها نعمةُ الروحِ القدس، عندما ظلَّلها بِظِلِّه الذي لا يوصف (لوقا ١/٣٥)، وتَضاعفَ هذا الامتلاءُ يومًا بعد يوم وساعةً تِلْوَ الأُخرى، إلى أَنْ وصلَ إلى حدٍّ عظيم لا يمكن تَصوُّرُه. فأقامها العليُّ، الخازنةَ الوحيدةَ لِكُنوزه، والمُوزِّعةَ الوحيدةَ لنِعَمه، لتجعلَ نبيلًا ورقيقًا وثريًّا كلَّ مَن تريد في طريق السماء الصعبة، ولإِدخال مَن تريد في باب الحياةِ الضَّيّق، ومَنْحِ العرش والصَّولجان وتاج المَلك لمن تُحبّ. فيسوع هو دائمًا وفي كلّ مكان، ثمرةُ مريم وابنُها، ومريمُ هي دومًا الشجرةُ الحقيقية التي تحملُ ثمرةَ الحياة والأُمُّ الطبيعيةُ التي تُنجِبُه.

لمريمَ وحدَها سَلَّمَ الله «مفاتيحَ خِزانةِ» (نشيد ١/٣) المحبة الإلهية، فخَوَّلَها سلطةَ الدخولِ في الطرقِ الأَكثر والأَكثر سِرِّيّةً في مَعارجِ الكمال، لتقودَ الآخرين فيها. ومريمُ وحدَها تقدر أن تُدخِلَ أَبناءَ حواء غيرِ الأمينة والتَّعيسة إلى الفِردوس الأرضي، ليَتنزهوا فيه مع الله بِلذّة، ويختفوا فيه بشَكلٍ آمِنٍ مِن أعدائهم، ويتلذّذوا بطِيبٍ، ودون خوف المَمات، من شجرة الحياة ومعرفة الخير والشر، ويشربوا طويلًا من المياه السماوية لهذا المُعينِ العَذْب الذي يَنبُع فيه

بغَزارة. وبالأَحرى، بما أَنها هي ذاتُها هذا الفِردوسُ الأرضي، والأرضُ البِكرُ والمباركةُ التي طُرِدَ منها آدم وحواء الخاطئان، فهي لا تَدَعُ أَحدًا يدخل عندها، إِلَّا من يَطيبُ لها أَنْ تجعلَه من مَصافِ القديسين.

لكي أَستعملَ كلمةَ الروح القدس، التي حسَبَ شرحِ القديس بِرنار «كلُّ أَغنياءِ الشعب» (مز٤٥(٤٤)/١٣) سوف يَستعطفون وجهَ مريمَ، من جيلٍ إلى جيل، لا سِيَّما في الأزمنة الأخيرة. أَيْ إِن أَعظمَ القديسين، والأَنفُسَ الأغنى نعمةً وفضيلة، ستكون الأَكثرَ مثابرةً في الصلاة إلى العذراء القديسة، التي نعتبرها دومًا حاضرة، والمثالَ الكامل للاقتداء به، وهي نصيرتُها القديرة لمساعدتها.

قلتُ سيَحدثُ هذا خاصّةً في الأَيام الأخيرة وقريبًا، لأَنَّ العَلِيَّ وأُمَّه القديسة، سيَصوغان على صورتِهما، قديسِين عِظامًا، يفوقون قداسةَ أَغلب القديسين الأخيرين، كما يعلو أرزُ لبنانَ على الشُّجَيرات الصغيرة.

إِنَّ هذه النفوسَ الكبيرة المملوءةَ نعمةً وغيرةً، ستُنتَخَبُ للمحاربةِ ضدَّ أَعداءِ الله، فتُرعِد من كلِّ صوب. وستكون عجيبةً في إِكرامِها لمريم، زاهيةً بنورها، مغتذيةً من حليبها، تُقاد بروحها، وتستندُ إلى ذراعها، وتُحفظُ تحت رعايتِها؛ فستحارِب بيدٍ وتَبني بأُخرى (نَحَميا ١١/٤) . ستحارب بيد وتَغلِب وتَسحقُ أَعداءَ الله، وستَبني باليد الأخرى، هيكلَ سليمانَ المُقبِل ومدينةَ الله الروحية، التي هي مريم، والتي يسمّيها الآباءُ القديسون، هيكلَ سليمان ومدينةَ الله.

وستَحمِلُ هذه النفوسُ بأقوالها وأَمثالها، العالمَ كلَّه إلى الإكرام الحقيقي لمريم، الأَمرُ الذي سيَجلِبُ لها مضايقات كبيرة، ولكن في الوقت ذاتِه، مجدًا عظيمًا لله، مع انتصاراتٍ رائعة. هذا ما أَوحاه الله للقديس منصور فيرييه، رسولِ عصرِه العظيم، كما أَشار هو نفسُه إلى ذلك في كتابٍ له.

يَبدو أَنَّ الروحَ القدسَ كان قد سبَقَ وأَنْذَرَ بهذا في المزمور ٥٩(٥٨)/١٤-١٦، حيثُ يقول: «سيعرفون أَنَّ الله يتسلَّط في يعقوبَ وأَقاصي الأَرض. سيرجِعون في المساء، وسيجوعون مثلَ الكلاب ويُحيطون بالمدينة». ما هذه المدينة التي سيجدها الناس في آخِرِ الأَزمِنة ليَهتدوا إِليه، أو ليُشبِعوا جوعَهم، إِلَّا العذراء القديسة التي يدعوها الروحُ القدس: «مدينةَ الله» (مز٨٧(٨٦)/٣) .

العذراء مريم والأَزمنةُ الأَخيرة

اِبتدَأَ خلاصُ العالم بواسطة مريم، وبواسطتها أَيضًا يجبُ أَن يَكمُلَ. لم تظهرْ مريم في مجيءِ يسوع الأَوّل، إِلَّا قليلًا جدًّا، وذلك كَيلا يبتعدَ الناسُ الذين كانوا عندئذٍ قليلي المعرفة والإيمان بشخص ابنِها الذي هو الحقيقة، فيتعلَّقوا بها بقوةٍ وجاذبية، الأمر الذي كان سَيَحدث واقعيًّا لو كانت معروفةً حينذاك، وذلك بسببِ جمالِها الرائعِ الذي زانَها به العَليّ، حتى أن ديونيسيُس المُلقَّب بِالأريوباجيّ كتب بأنه عندما رآها ظنَّها الله، لسِحرِها الخَلّاب وبهائها عديمِ النظير، لو لم يُعَلِّمْه الإيمانُ خِلافَ ذلك. بينما عند مجيءِ المسيح الثاني، يجب أنْ تُعرَفَ، وسيُظهِرها الروحُ القدس، لكي يُعرَفَ بواسطتها يسوع، ويكون محبوبًا أكثرَ ومخدومًا، إذْ تكون قد زالتِ الأسباب التي حملَتهُ ليُخفيَ الأُمَّ المباركة أَثناءَ حياتِها الأرضية، وعندَ كرازةِ الإنجيل.

يُريدُ الله إذًا أَن يُعَرِّفَ ويَكشفَ مريمَ عملَ يديه الأَروعَ الأَعظمَ في الأَزمنة الأخيرة، لهذه الأسباب:

أ: لأنها أَخفَتْ ذاتَها في هذا العالم وجعلَتْ نفسَها بتواضعِها العميق، أَحْقرَ من التُّراب، وحصَلَتْ من الله ورُسُلِه وإنجيليّيه أَنْ تبقى مستَتِرة.

ب: لأنها أعظمُ ما صدرَ من يدِ الله بالنعمة على الأرض، وبالمجدِ في السماء، لِذا يريدُ الله أَنْ يُمجِّدَها وأنْ يَمدحَها الأَحياءُ على الأرض.

ج: لأنها السَّحَر الذي يَسبِقُ ويكشِفُ شمسَ العدل، يسوعَ المسيح. فيجب إِذًا أَنْ نعرفَها لنصِلَ إِليه بواسطتِها.

د: لأَنَّها الواسطةُ الأكيدةُ والنهجُ المستقيمُ والمَحبولُ بها بلا دنس، للذَّهاب إلى يسوع، حتى نجدَه بشَكلٍ أَكمل. إِذًا على النفوس الموغَلةِ في القداسة أَن تَجدَه بواسطتها، لأَنَّ مَن يجدْ مريم، يجدِ الحياة (أمثال ٨/٣٥)، أَعني يسوعَ المسيح الذي هو «الطريق والحق والحياة» (يوحنا ١٤/٦). لكننا لا نجد مريم بدون التفتيش عنها، ولا نُفتّشُ عنها إذا كُنّا لا نعرفُها، ولا نفتش ولا نشتهي أَمرًا إلّا بعدَ معرفتِه، لذا يجبُ معرفة مريم أكثر من أيِّ زمانٍ آخر، لمجدِ الثالوث المعبود.

هـ: يجبُ أن تسطَعَ مريمُ رأفةً وقوةً ونعمةً في الآوِنة الأخيرة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، أولًا بالرأفة، لتُرجِعَ الخَطأة وتَقبلَ بعطفِ المساكين التائبين العائدين إلى الكنيسة. ثانيًا، بالقوة،

ضدَّ أعداءِ الله، ذَوي القلوبِ القاسية، الذين يثورون هولًا ليُقِرّوا بالوعد والوعيد، ويُسقِطوا جميع الذين يخالفونهم.

وأخيرًا يجب أن تسطعَ مريمُ بالنعمة لتشجِّعَ وتَسندَ الجنودَ الأبطالَ خُدّامَ يسوع المسيح الأُمناءَ الذين سيحاربون من أَجل مصالحه.

و: ستكون مريمُ مُرعبةً للشيطان وزبائنِه، كجيشٍ منظَّمٍ للقتال، لا سِيَّما في الأَزمنة الأخيرة، لأَنَّ الشيطان إذْ يَعلمُ أَنَّ وقتَه قصيرٌ للغاية، سيُضاعِفُ جهودَه ومحارباتِهِ كلَّ يومٍ لإهلاكِ النفوس، وهكذا سيَشِنُّ اضطهاداتٍ قاسيةً ويَنصبُ مكائدَ مخيفةً لخدّامِ مريمَ الأمناء وأبنائها الحقيقيّين الذين تَصعُبُ عليه غَلبتُهم أَكثرَ من الآخرين.

عن هذه الاضطهاداتِ الرهيبة والأَخيرة الشَّيطانية التي تزداد كلَّ يومٍ حتى مجيءِ الدَّجّال، يجبُ فَهمُ خاصَّة هذه النُّبُوة الأُولى الشهيرة التي لعنَ الله فيها الحية في الفِردَوس الأرضي، إذْ قال: «أَجعَل عداوةً بينكِ وبين المرأة، بين نسلِك ونسلِها، فهي تَسحقُ رأسَك وأنت تَرصُدين عَقِبَها» (تك ٣/١٥) .

إنّهُ لَمِن المفيدِ شرحُ هذه النُّبُوة ههنا لمدح العذراءِ ولخلاص أبنائها ولخِزيِ الشيطان.

لم يعملِ الله إِلَّا عدواةً واحِدةً لا مُصالحةَ فيها تَدوم وتَنمو حتى النهاية، عقَدَها بين مريم أُمِّه المبارَكة والشيطان، بين أَبناء مريم وأَبناء وزبائن لوسيفورُس، فصار العدوُّ الأَلَدُّ الذي وضعه الله للشيطان، هو مريم أُمُّه القديسة؛ وضعها الله منذ الفِردوس الأرضي رَغم أنها لم تكنْ بعد موجودةً آنذاك إِلَّا في فكرِهِ تَعالى. وجعل كراهيةً كبيرة ضدَّ هذا العدوِّ اللَّعين، الحيّةِ القديمة، وأَعطى مريمَ قوةً جبارة لهزيمة وصرعِ وسحقِ رأسِ هذا الماردِ المتكبِّر، فصار يَخشاها لا فقط أَكثر من الملائكة، ولكن نوعًا ما حتى مِن الله ذاتِه، ليس لأَنَّ سُخطَ الله وكراهيَّتَه وقدرتَه لا تَفوق بِشَكلٍ لامتناهٍ تلك التي لمريم، ولكن لأن كمالاتِها هي محدودة، والشيطان متكبِّر للغاية، لذا يتعذبُ جدًّا ويذوبُ خجلًا عندما تَغلِبه أَمَةُ الله الصغيرة المتواضعة، فيُسخِطُه كثيرًا تواضعُها، ويخاف صلواتِها أَكثر من صلاة جميع القديسين، وأيضًا تهديدًا منها، فيعتبرُه عذابًا فادِحًا جدًّا.

إِنَّ ما خَسِره لوسيفورُس بكِبريائِه، اكتسبَتْه مريم بتواضعها. وما فقدَته حَوّاء بعِصيانها رَبِحَته مريم بطاعتها. فحواء بإصغائها للحية أَهلكَت نفسَها وكلَّ أَبنائِها، ومريم بأَمانتها الكاملة لله، خلَّصت ذاتَها وكلَّ أولادِها مكرِّسةً إِيَّاهم لجلالِه.

ولم تَقتصرِ العداوةُ التي وضعَها الله بينَ مريم والشيطان عليهما فقط، بل أَرادها أيضًا بين ذُرِّيَّتَيْهِما. فجعل نُفورًا لا يُطاق بين أَبناء العذراء وبين الشيطان وعبيدِه. فلا عِلاقَةَ ممكنة تَربِطُهم، ولا انسجامَ باطنيّ مطلَقًا بينهم؛ إِنَّ أبناء بَلِعال، أي عبيدَ الشيطان ومُحبّي العالم، اضطهدوا دومًا كلَّ الذين انتموا إلى مريم، كما اضطهَد سابقًا قايين وعيسو – رَمْزا المرذولين - أَخوَيْهِما هابيل ويعقوب، رمزَي المنتخَبين. إنَّ مريمَ المتواضعةَ ستنتصر دائمًا انتصارًا عجيبًا على هذا المتكبِّر وتَسحقُ رأسه مصدرَ كبريائِه، وستكشِفُ خُبثَه الأَفعَواني وخِداعاتِه الجَهَنَّمية وإغراءاته الشَّيطانية، وتُنجّي أَبناءها الأُمناء من عُبوديته القاسية إلى منتهى الدهور.

تَسطعُ قوةُ مريم على الشياطين كلِّهم، خاصّةً في الأزمنة الأَخيرة، عندما سيَنصِبُ إبليس شِراكَه أَمام عَقِبِها، أيْ أَبنائِها المتواضعين الذين تُقيمُهم لمحاربتِه. ولو أَنَّهم يَبانون صغارًا وفقراء حسبَ العالم، ومحتقَرين منه كالعَقِب، ويُداسون ويُضطهَدون، كما هي حالة العَقِب نظرًا إلى بَقيّة أَعضاءِ الجسم، لكنهم مع ذلك أغنياء بنِعَم الله التي تُوزّعُها عليهم مريمُ بغَزارة، وسيكونون عُظماء ومتعالين في القداسة أَمام الله، ومتفوّقين على كلّ الخليقة بغَيرتِهم الوَقَّادة، ومحفوظين بقوةِ العَونِ الإلهي؛ إِنَّهم رغم تواضُعِهم وبسبب اتّحادِهم مع مريم سيَسحقون رأسَ الشيطان ويجعلون يسوع المسيح منتصرًا فيهم.

في رُسُل الأزمنة الأخيرة

أَخيرًا يريدُ الله أَن تكونَ أُمُّهُ القديسة حاليًّا معروفةً ومحبوبةً ومحترمة أَكثر مِمّا كانتِ سابقًا، الأمرُ الذي سيَتحقّق حَتمًا، إذا مارَس المختارون بنعمةِ الروح القدس ونورِه، التكريمَ الباطني الكامل الذي سأَكشِفُه لهم. فسَيَرَون بوضوح، على قدر ما يسمح لهم الإيمان، نَجمةَ البحر الجميلة هذه، وسيَصلون إلى مَرفإِ السلام رَغم العواصف والقراصنة، باقتدائِهم بسيرتِها، وسيَعرفون عظائمَ هذه الملِكة، فيُكرّسون ذواتِهم بكاملِها لخدمتِها، مثل رعاياها المحبِّين، وسيشعرون بحلاوتِها وجودتِها الوالدية، وسيحبونها بحنانٍ كأَبناءٍ بَرَرة، وسيعرفون مراحمَها الغزيرة، ويشعرون بمعونتِها فيلتجئون إليها دومًا وفي كلّ شيء كما إلى محاميتِهم العزيزة ووسيطتِهم لدى يسوع المسيح، ويَدرون أَنها الواسطةُ الأَسهلُ والأَقصر والأَكمل للذهاب إليه، فيسلِّمون لها جسدَهم ونفسَهم دون تحفظٍ ليُصبحوا لها بجُملتِهم.

فمَن سيكونُ هؤلاء المُحِبّون أَولادُ مريم؟ سيكونون نارًا متَّقِدة من خدام الرب، يُضرمون نارَ المحبة الإلهية في كلّ مكان. سيكونون كسِهامٍ بِيَدِ القوي (مز١٧(١٦)/٤)، كسهامٍ مرشوقة بيد مريم القديرة تُمزِّق بها أَعداءَها. سيكونون مطهَّرين بنار المِحَن، ومتَّحدين بالله تمامًا (١كور ١٧/٦)، يحملون ذهبَ المحبة في القلب وبَخورَ الصلاة في الروح، ومُرَّ التَّضحيةِ في الجسد. سيُقدمون للفقراء والصغار في كلّ مكانٍ رائحةَ المسيح الطيبة، وللعظماءِ والأغنياءِ المتكبِّرين العالَمِيّين رائحةَ الموت. سيكونون غيومًا مُرعِدةً تَسبح في الهواء لأَقلِّ نسيمٍ من الروح القدس، غيرَ مُبالين بشيءٍ ولا مستغرِبين من أمرٍ؛ يُمْطِرون كلمةَ الله والحياة الأبدية، وسيُرعدون ضدَّ الخطيئة، ويكونون كالصاعقة ضدَّ العالم، يَضربون الشيطان وزبائنَه، ويخترقون جميعَ الذين يُرسِلُهم العَليُّ إليهم بسيوفِهم. رسلُ الأَزمنةِ الأخيرة الحقيقيون يُعطيهم إِلهُ القوة، الكلمةَ والنُّفوذَ لاجتراحِ العجائب، فينالون غنائمَ مجيدةً من أعدائهم؛ سينامون دونَ ذهبٍ ولا فضة - وما هو أَعظم - بِلا اهتمامٍ، وسطَ الكهنةِ الآخَرين من الكَنسيّين والإكليركيّين (مز٦٨(٦٧)/١٤)، وستكونُ لهم أَجنحةُ الحمامةِ الفِضّيّة للذَّهاب بنِيّةٍ خالصةٍ حيث يدعوهم الروحُ القدس، لمجدِ الله وخلاصِ النفوس، ولن يتركوا وراءَهم، في الأمكنة التي كرزوا فيها، إلَّا ذهبَ المحبةِ الذي هو كمالُ الشريعة (رومية ١٣/١٠) .

أخيرًا، سيكونون من تلاميذ يسوع الحقيقيين الذين يَقتفون أَثرَ فَقرِه وتواضعِه ومحبته، واحتقارِه للعالم، معلِّمين مِثلَه السَّبيلَ الضَّيِّق المؤدّي إلى الله في الحقيقة المَحْضة، وحسَبَ الإنجيل المقدَّس، وليس بمُوجَب مبادئِ العالم، دون أن يَهابوا أحدًا من المائتين، مهما كان قديرًا. سيكون سيفُ كلامِ اللهِ ذو الحَدَّيْن في فمِهم، حاملين شعارَ الصليبِ المُضَرَّجِ بالدَّمِ على أَكتافِهم وفي يُمناهُم، والمَسبحة في يُسراهُم، واسما يسوع ومريم الأَقدسَيْن مرسومان على قلوبِهم، واحتشامُ المسيح وإِماتَتُهُ في سلوكِهم.

هؤلاء هم الرجالُ العِظام الذين سيأتون، مرسَلين من مريمَ بإذنِ اللهِ لنَشر سُلطانِه على المُلحِدين والوثنيين. أَما متى وكيف سيكون ذلك، فالله وحدَه يَعلمُ ذلك. وواجبُنا نحن هو مُلازَمة الصمتِ والصلاة والتَّنهُّد قائلين مع المزمور: «اِنتظارًا اِنتظرت» (مز٥٠(٤٩)/٢).

ثانيًا- حقائقُ أَساسيةٌ عن تكريم مريم

بعدَ الكلام عن ضرورةِ التكريم للعذراء الطوباوية، علينا أن نرى ماهيَّتَه.

١ – يسوع المسيح هو الغايةُ الأخيرة من تكريم مريم.

الحقيقةُ الأولى. يجب أَنْ يكونَ يسوعُ مخلِّصُنا، الإلهُ الحقّ والإنسانُ الحق، هو غاية كلِّ تَقوانا وإكرامِنا، وإلا فهي كاذبةٌ وخدّاعة، لأنَّ يسوعَ المسيح هو الأَلِفُ والياء (رؤيا ١/٨). هو بدءُ وخِتامُ كلِّ الأشياء، وما عمَلُنا إلا، كما يقولُ الرسول، لكي نجعلَ كلَّ واحدٍ كاملًا في يسوع المسيح، لأنَّ فيه وحدَه فقط يوجد مِلءُ اللاهوت، وجميعُ النِّعم الأخرى والفضائلُ والكمالات. به وحدَه قد تَبارَكْنا بكل بركةٍ روحيّة. هو معلِّمُنا الأَوحد الذي يجب أن يعلّمَنا، وهو السيّدُ الوحيد الذي له وحدَه يجب أَن نَخضعَ بما أَنه رأسُنا وعلينا أَن نكونَ متّحِدين به، وهو المِثالُ الأَوحد الذي يجب أن نُصوَّرَ حَسَبَه، والطبيبُ الأوحدُ الذي يَشفي أَمراضَنا، والراعي الذي يجبُ أنْ يُغذّينا، والطريقُ الوحيدُ الذي يُرشدُنا، وحقيقتُنا الوحيدة التي يجبُ أَن نؤمنَ بها، وحياتُنا التي تُحيينا. فهو كلُّ شيءٍ لنا، ويجبُ أن يَكفيَنا. ولم يُعطَ تحت السماءِ اسمٌ آخَر قَطُّ، إلا اِسمُ يسوع، به نقدر أَن نَخْلُصَ؛ اسمٌ يضعُ اللهُ فوقه أساسًا لنا، وكلُّ بِناءٍ غيرِ مرتكِزٍ على هذا الحجر الراسخ، هو موضوعٌ على رملٍ متحرِّك، وسَيَسقط أَكيدًا، عاجلًا أَمْ آجلًا. وكلُّ مؤمن ليس متّحدًا به كاتّحادِ الغُصنِ بجِذعِ الكرمة، يَيبَسُ ويسقط، ولا يصلحُ إلَّا أن يُلقى في النار. وخارجًا عنه لا يوجدُ إلا كَذِبٌ وإثمٌ وبُطلانٌ وموت. ولكن إنْ كنا في المسيح، والمسيح فينا، فلا نخافُ الهلاكَ. ولا حتّى ملائكةُ السماء، ولا بشرُ الأرض ولا شياطينُ الجحيم، ولا أية خليقةٍ يمكنُها أن تُضِرَّنا، لأنها لا تَقوَى على فصلِنا عن محبةِ الله التي هي في المسيح يسوع. فبواسطتِه، ومعه وفيه نقوى على كلِّ شيءٍ، ونُقدّمُ كلَّ عبادةٍ ومجدٍ للآب باتّحاد الروحِ القدس، ونُصبِحُ كاملين، ونعطي رائحةً طيّبة لقريبِنا لأجل الحياة الأبدية (٢كور ٢/ ١٥– ١٦) .

وإذا ما نحن نُثَبِّتُ أَساسًا قويًا لتكريم مريم، فما ذلك إلا لكي نُوَطّدَ بشكلٍ أكمل العبادةَ ليسوعَ المسيح، ولنعطيَ واسطةً سهلة وأكيدةً لنَجِدَ يسوع المسيح. أمّا إذا ما يُبَعِّدنا إكرامُنا لمريم عن يسوع، فنُلقيه بعيدًا كخِدعةٍ شيطانية، بينما هو بالعكس؛ وفي تلك الحالة، ليس هذا الإكرامُ ضروريًّا لنا، لأنه لا يجعلُنا نَجدُ يسوع بشكلٍ أَكمل ونحبَّه بحُنُوٍّ أكثر ونخدُمَه بأمانةٍ أَعظم. واسمحْ لي يا يسوعُ الحُلو لحظةً لأتَشَكَّى بحبِّ أمامَ جلالِك الإلهي، فأقول بأن أغلبَ المسيحيين، وحتى ما بين أكثرِ الفاهِمين، لا يَعونَ الرِّباطَ الضروري بينك وبين أُمِّكَ القديسة.

إنك يا ربُّ دَومًا مع مريم، ومريم هي دَومًا معك، ولا تَقدر أَن تكونَ بدونِكَ، وإلَّا لكانت تَكُفَّ عن أن تكون ما هي عليه، وقد حوّلَتْها نعمتُك حتى إنها ليست بعد هي الحَيَّة، ولكن أَنتَ الحَيُّ فيها وتمتلكُها بجُملتها، كَأَسمى ما بين كلِّ الملائكة والطوباويين.

آه لو عرفَ الناسُ، المجدَ والمحبةَ التي تنالُها مِن هذه الخليقة العجيبة، لكانت تختلفُ مَشاعرُهُم كلِّيًّا عَنكما. إنَّ اتحادَكما هو هكذا وثيقٌ، حتى إنه لَأَسهلُ بِالأَحرى فَصْلُ جميعِ الملائكة والقديسين عنكَ، مِن عزلِ مريمَ المباركة، لا بل لَأَسهلُ فصلُ النور عن الشمس والحرارةِ عن النار، مِن فصلِها عنكَ، فهي تحبك بشوقٍ أعظم، وتُمجِّدك بشكلٍ أَكمل مِن سائرِ الخلائق معًا.

إنه لأَمرٌ مدهشٌ ومؤسفٌ، يا يسوعُ الحبيب، رؤيةُ جهلِ وظلامِ بعضِ الناس لأُمِّكَ مريم - ولا أَقول هذا عن الوثنيين الذين لا يعرفونكَ ولا يُهِمُّهم أن يعرفوها، ولا أيضًا عن الهراطِقة والمنْشَقّين الذين لا يُبالون بإكرامِها إذْ قدِ انفصلوا عنك وعن كنيستِك - ولكني أَتكلم عن المسيحيين الكاثوليك وحتى عن العلماء الذين بينهم، ويريدون أن يعلِّموا الحقائقَ للآخرين، ولا يَعرفونَك، لا أنتَ ولا أُمَّك المبارَكة، إلا بشكلٍ نَظريّ ويابِس وعقيم؛ فهؤلاء لا يتكلمون عن أُمِّك الطوباوية إلَّا نادِرًا، ولا أيضًا عن إكرامِها، خوفًا - كما يقولون – من إساءةِ استعمالِه أو إهانتِك بذلك؛ وإذا ما رأوا أحدًا أو سمعوه يُكرمُها بِرِقّةٍ وقوة وإقناع، ويؤكّد على تكريمها كواسطة أَكيدة، وكطريقٍ أمينٍ وكامل، وكسِرٍّ عجيب للاتحاد بك ولِمحبّتِك بِشَكلٍ أَكمل، فإنهم يصرخون ضدَّه، مُقَدّمين له أَلفَ سببٍ مَغْلوطٍ ليُقنِعوه بعدمِ الكلامِ عنها، لأنه سوءُ استعمالٍ كبير بِحَسَبِهم، ويَحرِصون على إبعاده عن التكلُّم عنها، والاقتصار عليكَ وحدَكَ، رغم ادّعائِهم الأَفلَج بمحبّتِها.

نسمعُ هؤلاءِ أحيانًا يتكلمون عن التكريم لأمك، ولكن ليس لمَدحِه وتَوطِيدِه بين الناس، بل لِهَدمِه، كسوء استعمالٍ، كما يزعمون. وإذْ ليس لهم محبةٌ لك ولا عبادةٌ، طالَما لا يُكرِمون أُمِّك، فإنهم ينظرون إلى المَسبَحة الوردية والثوبِ المقدس، كممارساتٍ نسائية لائقة بالسُذَّج والجُهّال، ويمكنُ الخلاصُ بدونها. وإذا أتاهم أحدٌ يُكرِمُها بتِلاوة مَسبحتِها أو بإكرامٍ آخَر لها، سُرعانَ ما يغَيّرون عقلَه وقلبَه، ويُشيرون عليه بأن يتلوَ المزاميرَ السبعة بدَلَ الورديةِ، وعِوَضَ إكرامِها يقدّمون التعبُّدَ لك.

آه يا يسوعُ الحُلو، هل إنَّ روحَك هو في هؤلاء؟ هل إنهمُ يُفرِحونك بهذا العمل؟ هل يروقون لك، لأنهم لا يَبذُلون وُسعَهم في جعل أُمِك فَرِحةً، خوفًا مِن إهانتِك؟ هل يُعيقُ تكريمُ

أمِّك العبادةَ لك؟ هل تَنسِبُ أمُّك لذاتِها الإكرامَ المقدَّم لها؟ هل هي غريبة عنك ولا رابطةَ لها بِكَ؟ هل بتفريحِها تُجرَحُ أنتَ وتُهان؟ وهل في تخصيص الذاتِ لها وفي محبّتِها ينفصلُ المرءُ عنك ويبتعدُ عن محبتك؟

لو كان الأمرُ هكذا حقًا يا معلِّمي الحبيب، لَما ابتعدَ أغلبُ العلماء عن إكرامِ أمِّك، قصاصًا لكبريائهم، ولَما صاروا غيرَ مبالين. ألا احفظْني يا ربُّ واحرُسْني من شعورِهِم هذا ومن ممارستهم، وهَبْني معرفةَ الجميل والإكرامَ والتقديرَ والمحبة التي لك نحو أمِّك الطوباوية، لِأُحبَّك وأُمجّدَك على قدر ما أَقتدي بك وأَتبعُك عن كَثَب.

وكأني لم أقُلْ حتى الآن شيئًا في إكرام أُمِّك المبارَكة، ألا امنحني النعمةَ لأَمدحَها بِشَكلٍ لائق، رغم أَعدائي الكثيرين الذين هم أعداؤك أيضًا، فأقول لهم بصوتٍ عالٍ مع القديسين: «لا يَظُنَّنَّ أحدٌ أن الله يرحم ذاك الذي يُهينُ أمَّه القديسة» .

ولكي أَحصلَ من جودتك على تكريمٍ حقيقي للأم القديسة، لأنشرَه في الأرض كلّها، دعْني أُحبُّك بحرارة، واقبَلْ هذه الصلاةَ الملتهِبةَ التي أُصلّيها لك مع القديس أَغُسطينُس، ومع أَصدقائِك الحقيقيين فأقولُ: «أنت هو المسيح، أَبي القدوس، إلهي الرَّحوم، ملكي العظيم، راعيَّ الصالح، معلِّمي الوحيد، مساعِدي الأمين، حبيبي الأجمل، خبزي الحي، كاهني الأبدي، مرشدي نحو الوطن، نوري الحقيقي، حلاوتي المقدسة، طريقي المستقيم، حكمتي المنيرة، بساطتي الطاهرة، طُمَأنينتي الهادئة، حِراستي الكاملة، إِرثي الثمين وخلاصي الدائم.

«يا يسوع المسيح، أَيها الربُّ الحبيب، ما بالي رغِبتُ واشتقتُ في حياتي إلى آخَرَ سِواكَ؟ أين كنتُ عندما لم أكن أفكّر فيك؟ اِتَّقدي يا أشواقي، أقلَّهُ منذ الآن، وصُبيّ في الرب يسوع. اِجري فإنكِ لَمتأخرةٌ، أَسرِعي لتَبلُغي الهدفَ، فتِّشي عن الذي تشتاقين إليه. ليكن مُبسَلًا من لا يُحبُّك يا يسوع، ولْيَمتلئْ حرارةً مَن لا يَتلهَّفُ إليك. ليُحبَّك يا يسوع الحُلو ولْيتلذَّذْ بك ويَنذهلْ أمامك كلُّ شعورٍ طيّبٍ لائقٍ بمديحِك.

آه، يا إلهَ قلبي وإرثي، أيها الرب يسوع، لِيَشْدَهْ عقلي واحْيَ أنت فيّ، ولْيضطرمْ جَمرُ محبّتِك الملتهِب في روحي، ويَتَّقِدْ بسَعيرٍ كامل. ولْيُضِئْ دومًا في هيكل قلبي ويلتهب في أَعصابي، ويحتَرق في حَنايا نفسي إلى يوم المَمات، عندما أحضُر أمامك في محبتك، آمين».

٢- في عبوديتنا ليسوعَ المسيح ولمريمَ

الحقيقةُ الثانية. نظرًا لما هو يسوع المسيح بالنسبة لنا، يمكن أن نستنتجَ بأننا لسنا أبدًا لذاتِنا، بل كما يقول الرَسول (١كور ١٩/٦) إننا بجملتنا له، كأعضائِه وعبيدِه الذين اشتراهم بثمنٍ لامُتناهٍ، ألا وهو دمُه. وكنا قبل المعمودية كعبيد للشيطان، وأصبحنا بالعماد عبيدًا حقيقيين ليسوعَ المسيح. فلا يَحِقُّ لنا بعد أنْ نحيا أو نشتغلَ أو نموتَ إلا لكي نُعطيَ ثمارًا لهذا الإلهِ الإنسان (رومية ٤/٧)، فنجدُه في جسَدِنا، ونملِكُه في نفسِنا، لأننا صرنا مِلكَه وشعبَه المكتسبَ وميراثَه.

لهذا يُشَبِّهُنا الروحُ القدس (مز ٣/١، يوحنا ١٢/١٥، ١١/١٠، متى ٣/١٣) ١: بالأشجار المغروسة على مَجرَى مياهِ النعمة، في حقل الكنيسة، والتي يجبُ أن تعطيَ ثمارها في أوانها؛ ٢: بأغصانِ الكرمةِ التي أَصلُها يسوعُ المسيح، والتي يجبُ أن تحمِلَ عِنبًا جيّدًا؛ ٣: بالقطيع الذي يرعاه يسوع، والذي يجب أن ينموَ ويُعطيَ حليبًا؛ ٤: بالأرض الجيدة التي يَحرُثُها الله، والتي يجب أن تنمو وتزدادَ وتُعطيَ من بُذورِها الواحدة ثلاثين وستين ومِئة. لِأنّ يسوعَ لعنَ التينة العقيمة (متى ١٩/٢١) وشجَبَ العبدَ الكسلان الذي لم يتاجرْ بوَزنتِه (متى ٢٤/٢٥-٣٠). إن يسوعَ ينتظرُ من أَشخاصِنا الحقيرة ثمارًا، أيْ أعمالًا صالحة، تَخُصُّه هو وحدَه، لأننا مخلوقون لِلأعمال الصالحة في يسوع المسيح» (أفسس ١٠/٢)؛ فهذه الكلماتُ الصادرةُ من الروح القدس، تبيّنُ بأنَّ يسوعَ هو المبدأُ الوحيد، ويجب أن يبقى الغايةَ الوحيدة لكافّةِ أعمالنا الصالحة، وأنْ نخدُمَه لا كخُدّامٍ بأُجرة، بل بالأَحرى كعبيده المحِبّين.

هناك نوعان من الانتماء، بِهما يَتبعُ المَرء شخصًا آخَرَ ويَخضعُ لسلطته، إمّا بسبب الأُجْرة، فيُقدِّمُ له خدمتَه لقاءَ ذلك ونُسمّيه خادمًا، وإمّا لأنه عائدٌ له بجملته ونَدعوه عبدًا. في الخدمة الاعتيادية يتعهَّدُ المرءُ خدمَة الآخَر لحينٍ ما مُقابِلَ أجرتِه، بينما في العبودية، يُصبِحُ الإنسانُ خاضعًا للآخر بكُلِّيَّتِهِ وطيلة حياته، دون مقابِلٍ أو أُجرةٍ البَتّة.

أَما العُبودية فهي على ثلاثة أشكال: أيْ طبيعيةٌ، أو قَسريةٌ أو طَوعيةٌ. فبِالأُولى، جميعُ الخلائقِ هم عبيدُ الله: «للربِّ الأرضُ بمِلئِها» (مز٢٤(٢٣)/١). وبالثانية، هُم الشياطين والهالكونَ. أمّا بالنوع الثالث، فهم الأبرارُ والقديسون. وهذه العُبوديّة الأخيرة هي الأكمل والتي تعطي المجدَ لله أكثر، لأنهُ يَنظرُ إلى القلب (١ملوك ٧/١٦)، ويطلبُ القلبَ (أمثال ٢٦/٢٣)، ويُدعى بإلهِ القلب (مز٧٣(٧٢)/٢٦)، فهي عبوديةُ حبٍّ، لأننا بواسطتها نحبُّ اللهَ فوق كلّ شيء، ونحبُّ خدمتَه رغم أنَّ الطبيعةَ لا تُلزِمُنا بذلك.

هناك فرقٌ كلّيٌّ بينَ الخادمِ والعبد. ١) الخادمُ لا يقدّمُ لسيده كلَّ ما هو فيه أَو له، أو ما يُمكنه الحصولُ عليه بنفسه أو بواسطة غيره، بينما العبدُ يقدِّمُ لسيده ذاتَه بجُملتِها وكلَّ ما يملِك، أو يُمكنُه أن يكتسبَه دونَ استثناء. ٢) يَشرُطُ الخادمُ على سيده أُجرةً، لِقاءَ الخدمةِ المقدَّمة له، بينما العبدُ لا يَقوَى على مطالبتِه بشيءٍ مهما أظهر في خدمته من مثابَرة أو مَهارة أو قوة. ٣) يستطيع الخادمُ أن يَهجُرَ سيّدَه كلَّما طابَ له ذلك، أو أَقلَّه عند انتهاء الزمن المتَّفَق عليه، أَمّا العبد، فلا يقدر قَطُّ أن يتركَه مهما أراد. ٤) لا حقَّ للسيد على حياةِ أو مَمات خادمِه، وإذا ما قَتله فإنه يرتكبُ جُرمًا يعاقَب عليه، أما العبد فحياتُه ومماتُه هما طَوعُ إرادةِ سيده، فيَقدِرُ أن يبيعَه لِمَن يشاء أو حتى أن يَقتلَه كما لو قتل حيوانًا له. ٥) أَخيرًا، الخادم هو عند سيدِه لأَجَلٍ معيَّنٍ فقط، بينما العبدُ هو عنده دائمًا[١] .

لا شيءَ يربِطنا بالبشر أَقوى من العبودية، ولا شيءَ أوثق يُوحِّدُ المسيحيين بيسوع المسيح وأُمِّه القديسة، من العبودية الطَّوعية، على غِرار يسوع الذي «أخذ صورةَ عبدٍ» (فيلبي ٢/٧) حبًّا بنا، وقالتِ العذراءُ مريم عن ذاتِها: «هاأنَذا أَمَةٌ للرب» (لوقا ١/٣٨)؛ ويَتشرفُ بولسُ الرسول بلَقَبِ «عبدِ المسيح» (رومية ١/١ ، غلاطية ١/١، فيلبي ١/١، طيطس ١/١). ويدعو الكتابُ المقدس المسيحيين، مرّاتٍ عديدة، «عبيدَ المسيح» . فإنَّ هذه الكلمةَ حسَبَ الملاحظة الدقيقة التي يقوم بها أحد كِبارِ الكُتّاب[٢] لم تكن فيما مضى إلا العبوديةَ الحقيقية؛ يستعمل أيضًا «التعليم المسيحي» لمجمع تْرِنْتو، كلمة «عبد»، وليس خادم، ويقول: «إننا عبيدُ يسوعَ المسيح» .

وعلينا أن نكونَ عبيدَ يسوع المسيح وأَن نخدُمَه لا فقط كخُدامٍ بأُجرة، ولكن مثلَ عبيدٍ، نتيجةَ محبّتِنا العُظمى له، ويَكفينا شرفُ الانتماء إليه.

---

[١] كانتِ العبودية أمرًا اعتياديًا ومقبولًا من كلِّ الأمم في العصور القديمة والمتوسطة وحتى الحديثة. وكان العبدُ يُباعُ ويُشترَى كمَتاعٍ أو حيوانٍ، تعودُ ملكيتُه إلى سيّده، فله الحقُّ في حياتِه أو مَماتِه. اقتضى زمنٌ طويلٌ جدًا لكي تستطيعَ الكنيسة أن تُغيِّرَ عقليةَ المجتمع للتَّخلي عن هذه المعاملة المُضادّةِ لحرية الإنسان الطبيعية، حتى تَكلَّفَتِ الجهودُ والمحاولاتُ لإلغائها خاصة في القرن التاسع عشر، وإلى أيامنا عندَ إعلانِ حقوقِ الإنسان عام ١٩٤٨.

[٢] هو هنري ماري بودون في كتابه: «العبودية المقدَّسة لأمِّ الله العجيبة» .

إنَّ ما أقولُهُ عن عبوديتِنا المطلَقة ليسوعَ المسيح، أَقولُه نِسْبيًّا عن عبوديتنا لمريمَ القديسة. لأنَّ يسوعَ اختارَها رفيقةً غيرَ منفصلةٍ لحياته ومماتِه ومجدِه وقدرتِه على الأرض وفي السماء، فأعطى لها بنعمته الفائضة كلَّ الحقوق والامتيازاتِ التي يَملكها هو بالطبيعة. يقول القديسون: «كلُّ ما يليقُ بالله حسبَ الطبيعة، يليقُ أيضًا بمريمَ حسبَ النعمة». لذا لِكِلَيْهِما نفسُ الرَّعايا والعبيد.

حسبَ فِكر القديسين وكثيرين من الرجال العظام، على المَرء أنْ يُعلنَ ذاتَه عبدًا مُحِبًّا للعذراء الطوباوية ليصيرَ عبدًا أكملَ ليسوعَ المسيح. لأنَّ العذراء مريمَ هي الواسطةُ التي استخدمها ابنُها للمجيءِ إلينا، فعلينا نحن أيضًا أن نستخدمَها كواسطتِنا للذَّهاب إليه. إنها ليست كبَقيّةِ الخلائق التي، إذا تعلَّقنا بها، تُبعِدُنا عن الله غايتِنا، بل بالأَحرى إنَّ العذراء مريمَ تُقرّبنا منه. فلا رغبةَ أعظَمَ لمريمَ من أنْ تُوحّدَنا مع ابنِها يسوع. ولا شوقَ أيضًا أحَرَّ للابن من أن نَصلَ إليه بواسطة أمِّهِ الطوباوية. لأننا بذلك سنُعطي له شرفًا أكبرَ وفرحًا أعظم، تمامًا كما نُفَرِّحُ مَلكًا ونعطي له شرفًا أكثر، عندما نُصبِح عبيدًا للمَلِكة، لإظهار ذاتِنا أننا من أخلَصِ الرعايا وأَحبِّ العبيدِ له. لذا يُصرِّح القديسون، وأخُصُّ بالذكرِ منهم القديس بوناڤِنتورا القائل: إنَّ الاقترابَ منها هو الطريق إلى المسيح».

بما أنَّ العذراءَ القديسة هي ملكةُ السماء والأرض، كما يقولُ القديسون، إذًا فكلُّ البرايا هم رعاياها وعبيدُها. أَلَيْسَ من المَنطق أن يكونَ بجانب عددٍ كبير من العبيد قَسْرًا، عبيدٌ أيضًا عن حُبٍّ مجرَّدٍ واختيار؟ ألا يوجدُ للبشر وحتى للشياطين عبيدٌ متطوِّعون؟ لِما لا يمكنُ أن يكونَ لمريمَ أيضًا؟ أليس أمرًا مُشرِّفًا للملك أن يكونَ للملكة عبيدٌ يَفدونها بحياتهم؟ مَن يَتجاسر أنْ يَزعمَ أو أنْ يُفكِّرَ بأنَّ ربَّنا يسوع الذي كان خيرَ البنين، يكونُ احترامُه وحبُّه لوالدته أقلَّ من حبِّ أَحشورُش لأَستير، أو سُلَيمان لبَتْشابَع؟

إذا كان هناك أُناسٌ لا يَروقُ لهم أن يَتَسَمَّوْا عبيدًا لمريَم، فَلْيَقولوا ويُصبِحوا حقًّا عبيدًا ليسوع، وهذا يكفي ليَجعلَهم بذات الفعِل عبيدًا أيضًا لمريَم، لأنَّ يسوع ثمرةُ مريم ومجدُها، وهذا ما يُرادُ بالتكريم الحقيقي.

٣- في إخلاء ذاتِنا من كلِّ ما هو رديءٌ فيها

<u>الحقيقةُ الثالثة</u>. إنَّ خيرَ أعمالِنا مُلَوَّثةٌ عادةً بالخطيئة بسبب مَعدَنِنا الرَّديء. عندما يُصَبُّ ماءٌ رائق في وِعاء مُتَّسِخ، يَتعكَّرُ الماءُ ويتلوثُ. عندما تَضعُ خمرًا في إناء مُلَوَّث بِخمرٍ فاسدة

يتلوثُ وتصيرُ له رائحة كريهة. كذلك عندما يضعُ الله في نفوسِنا الملوثةِ بالخطيئة، نِعَمَه وعطاياه السماوية، تَتَلوَّثُ اعتياديًا ببقايا الخطيئةِ التي فينا، وحتى أَسمى أعمالِنا تعطي رائحةً غيرَ طيبة. لِذا من المُهِمّ جدًّا، لاكتسابِ الكمالِ الذي نَحصلُ عليه باتّحادِنا مع يسوع، أن نُفْرِغَ ذاتَنا من كلّ ما هو رديء فيها.

ونَصلُ إلى ذلك بمعرفة نفسِنا جيّدًا تحت أَنوارِ الروح القدس. فنَعرف باطنَنا الرَّديءَ وعدمَ مقدرتِنا على الخير وضُعفَنا الشديد، وتَقَلُّبَنا المُتواتِر وعدمَ أَهلِيَّتِنا وفسادَنا. إنَّ الخطيئةَ، بالنظر إلى الإنسان، هي بمَثابة الخميرة إلى العَجين التي توضعُ فيه، فتُحَمِّضُهُ وتَنفخُه وتُفسِدُه. إنَّ الخطايا التي ارتكبناها، وإن غُفِرتْ لنا، قد تركتْ فينا ضُعفًا وقِلَّةَ ثَباتٍ تُكوِّنُ بَقايا رديئة في نفوسنا، وتَجعلُ أَجسادَنا فاسدةً حتى يُسمّيها الرسول: «أَجسادَ الخطيئة»، لأنها معجونةٌ بالخطيئة؛ ونفسُنا المُتَّحِدة بهذه الأجساد، تُصبحُ هي أيضًا بِدَورِها نفسًا جَسدية (تك ١٢/٦) ملوَّثةً بالكبرياء وبِقساوةِ القلب وعمى الروح وعدمِ الثَّبات والشَّهوات ... إلخ.

لا عَجَب إذًا، مِن أنْ نَسمعُ مُخلِّصَنا يقول بأنَّ من يريدُ أن يتبعَه عليه «أن يُنكرَ ذاتَه ومن يُحبُّ نفسَه يُهلِكُها، ومن يُهلِكُها من أجلِه يُخلِّصها» (يوحنا ٢٥/١٢). فنَكرَه ذاتنا لأننا نستحق ذلك، بينما لا شيء يستحقُ المحبة أكثرَ من الله.

كذلك، لكي نُخلي ذاتنا علينا أن نموتَ عنها كلَّ يوم، بالمعنى الذي يَقصُده الرسول عند قوله أنّنا إذا كنّا نرى فكأننا لا نرى، وإذا كُنّا نسمع فكأننا لا نسمع البَتّة، وإذا كُنّا قد استخدمْنا أشياءَ هذا العالم فكأننا لا نستخدمُها قَطُّ (١كور ٣١/١٥). «إذا كانت حبّةُ الحِنطة التي تَسقط في الأرض لا تموت، فإنّها تَبقى وحدَها» (يوحنا ٢٤/١٢) ؛ وإذا كُنّا لا نَموت عن ذاتنا، فلا نُعطي ثمارًا لائقة، فتُصبِح عِبادتُنا غيرَ نافعة، إذْ تَتلوَّثُ أعمالُنا التَّقويةُ بمحبّةِ الذات. وهكذا عند الموتِ سنجد نفسَنا فارغة من الفضيلة والاستحقاق وعاريةً من المحبّة الحَقّة، تلك المحبة التي تُمنَح للنفوس المائِتة عن ذاتها والتي حياتُها هي خَفِيّةٌ مع يسوع المسيح في الله (كولوسي ٣/٣).

إذًا، علينا أن نختارَ من جميع الممارسات التَّقَويّة لمريم الطوباوية، تلك التي تَحمِلُنا أَكثرَ إلى الموت عن ذاتنا، لأنها الأحسنُ والأكملُ. لا نَخدَعَنَّ أنفسَنا. «ليس كلُّ ما يَلمع ذهبًا»، يقول المثل. ولا «كلُ ما هو حلو هو عسل». وهكذا، ليس كلُّ ما هو أسهل للعمل ويُمارِسُه عددٌ أكبر، هو الأكثر قَبولًا وقداسةً.

كما توجد في الطبيعة طُرقٌ بمُوجِبِها نمارس بعضَ الأمور في وقتٍ قصير وجَهدٍ قليل ويُسْرٍ كبير، هكذا أيضًا في حقل النعمة تُوجد سُبُلٌ تَحملنا في زمن وجيز وحلاوة لذيذة على القيام بأعمال روحية عظيمة، كإخلاء الذات والامتلاء من الله والتَّقدّمِ في مَعارِجِ الكمال. إنَّ هذه الممارسةَ التي أُريدُ كشفَها، هي من أسرار النعمة التي يَجهلها كثيرٌ من المسيحيين ولا يمارسُها إلا النَّزرُ القليل من الوَرِعين.

٤- في حاجتِنا إلى وسيط لدى يسوعَ المسيح الوسيط بالذات

الحقيقة الرابعة. إنَّ الاقترابَ من الله بواسطةِ وسيطٍ، هو أَكملُ من التقدم إليه بذاتِنا بدون وسيط، لأَنه أكثرُ تواضعًا واحترامًا. إنَّ أعمالَنا التَّقَوية الشخصية قيمتُها قليلة من ذاتها، فلا نَقوَى على إغرائه للاتحاد بنا أو الاستجابةِ لنا، فإذا أَهملْنا هؤلاءِ الشُّفعاءَ القديرين، وخَطَونا نحوه مباشرةً بلا توصية، نُظهرُ قِلّةَ تواضعٍ وعدمَ احترامٍ، لذا أَعدّ لنا الله بمراحمه الغزيرة، وُسَطاءَ لنُقدِّمَ أعمالَنا له بواسطتهم. فهل نتجاسر على الدُّنُوّ من ملكٍ أرضي وحدَنا؟ ألا نفضلُ أن يكونَ معنا صديقٌ يوصي بنا؟

يسوعُ هو محامينا لدى الله الآب، ووسيطُنا في الافتداء. علينا إذًا أن نصلي بواسطته مع كلّ الكنيسة المنتصِرة والمجاهِدة، مقدِّمين للآب استحقاقاتِه، لنَنال منه الحُظوة مثلَ يعقوبَ الصغير الذي حضر أمام أبيه إسحق لابسًا جِلدَ المَعِز، ليَقبلَ بركتَه. فهل لسنا بحاجة إلى وسيط لدى هذا الوسيط بالذات؟ إنه إلهٌ مُساوٍ لأبيه في كلّ شيء، فهو قدوس القديسين، وأهلٌ للاحترام مثلُ أبيه، فلا يجب أن يَقِلَّ احترامُنا لجلالِه وقداستِه؛ لِذا أُردّدُ مع القديس بِرنار: نعم، إننا بحاجةٍ إلى هذا الوسيط. ومريمُ تقدرُ أن تقومَ بهذا الدَّور أحسنَ من الجميع. فإذا كنّا نخاف الدُّنُوَّ من يسوع بسبب عظمتِه اللامتناهية، أو بسبب حقارتِنا وخطايانا، فَلْنَلتمسْ بثقةٍ عونَ مريم أُمِّنا وشفيعتِنا. إنَّها جميلةٌ وحُلوة كالقمر (أناشيد ٦/٩)، وليس كالشمس التي بتوهُّجِ أَشعّتِها تُبهر عيونَ ضَعفِنا. إنها الأُمّ المحِبّة، فلا تُبعِد كلَّ من يَطلب شفاعتَها مهما كان خاطئًا، وكما يقول القديسون، لم يُسمعْ قَطُّ أَنَّ أحدًا التجأ إليها بثقة وثبات وعاد خائبًا. إنها الأُمّ القديرة التي لا تَرفض طلبًا. يكفي أن تَمثُلَ أمام ابنها سائلةً، ليستجيبَ حالًا، ويَقبلَ طِلبتَها فورًا.

هذا ما يُعلِّمه القديسان بِرنار وبوناڤِنتورا. بِحسَبِهما، توجد ثلاثُ درجاتٍ للارتقاء نحو الله. الأولى وهي الأقربُ منا والأنسبُ لنا، وهي مريم. والثانية يسوع المسيح، والثالثة هي الله الآب.

فلِلذَّهاب إلى يسوع، علينا الذَّهاب بواسطة مريمَ شفيعتِنا، وللذَّهاب إلى الله الآب، لنذهبْ بواسطة وسيطِنا في الفداء يسوع. هذا هو الترتيب الكاملُ الذي نُراعيه في هذه الممارسة.

٥- في صعوبة المحافظة على النعم والكنوز المقتبَلة من الله

الحقيقةُ الخامسة. إنه لَمِن الصعب جدًّا علينا أَن نحافظَ على النعم والكنوز التي قبِلناها من الله، نظرًا إلى ضُعفنا ورَخاوتنا. لأنَّنا نحمل هذا الكنزَ الثمينَ في «آنية ضعيفة» (٢كور ٧/٤)، أيْ في جسدٍ قابلٍ للفساد ونفسٍ ضعيفة متقلِّبة، يُقلقها شيء بسيط ويُوقِعها.

إنَّ الشيطانَ اللِّصَّ الخبيث، يَدور حولَنا بلا انقطاع ليَفترسَنا ويُباغتَنا ليَسرِقَنا بارتكاب خطيئة، فيَسلِبَنا كلَّ ما حَصَّلْناه في سنين عديدة من نِعَم واستحقاقات. إنَّ خُبثَه وخبرتَه وحِيَلَه يجب أنْ تُخيفَنا، لأنَّ أُناسًا أكثرَ نعمةً منّا، وأغنى فضيلةً وأرسخَ خبرةً وأسمى قداسةً قد سَلَبَهم بِشَكلٍ فظيع. مع الأسف، كم من أَرزِ لبنان قد سقط ونَجمٍ لامِع هَوَى في وقتٍ قصير. وكان سببَ ذلك، عدمُ تواضعِهم إذْ ظنوا أنهم يَقدِرون المحافظة على كُنوزِهِم، معتمِدين على ذَواتهم، حاسبين بيتَهم راسخًا كفاية، وصناديقَهم قوية للمحافظة على كنوز النِّعَم، إلا أنَّ العادلَ سمح بتَركِهم لِذَواتِهم. فلو أَودَعوا ما لهم إلى يد مريمَ الأمينة، لَحافَظتْ عليها بحِرصٍ عظيم.

إنَّه من الصعب الثَّباتُ في القداسة بسبب فسادِ العالم. إنَّ العالمَ فاسدٌ جدًّا، حتى إنَّ القلوب تَبان وكأَنها مَلَوَّثةٌ، إن لم يَكُنْ بِوَحْلِهِ فأَقلُّه بغُبارِهِ. لذا، عندما يبقى الشخص ثابتًا وسطَ هذا التيار العارم دون أن يَنجرفَ منه، أو في البحر الصاخبةِ أمواجُهُ ولا يَغرق أو يُسلَبُ من القراصنة، أو لا يختنقُ في هواءٍ فاسد، فذلك يُعتبرُ كَمُعجزة تقومُ بها العذراءُ الأمينة - تلك التي لم يَصِرْ للحَيَّة فيها نَصيبٌ - نحو الذين يخدُمونها بشكلٍ جميل.

ثالثًا- في اختيار الإكرام الحقيقي للعذراء مريم

علينا الآن أن نختارَ الإكرامَ الحقيقيَّ للعذراء الطوباوية، لأنَّ هناك كثيرًا من الممارسات الباطلة التي من السهل أن نُخدَعَ فيها. إنَّ الشيطانَ مَكّارٌ ودَجّالٌ ماهر ذو خبرةٍ في الغِشّ وفي إهلاك الناس بتقديمه تكريمًا باطلًا لمريم، موهِمًا إيّاهم بأنهم مثلًا في تلاوة بعضِ الصلوات لها ولو بشكلٍ رديء، فهذا كافٍ، أو بممارستهم بعضَ الأعمال الخارجية لتكريمها، فلا بأس عندئذ بتَماديهم في الخطيئة. إنه كَمُزيّفِ النقودِ الذي لا يُزيّف عادةً إلّا النقودَ الذهبية أو الفِضّيّة، ونادرًا فقط تلك المصنوعةَ من معادنَ بَخْسة، لأنها لا تُساوى التعب؛ هكذا الروحُ الخبيثة، لا تُزيّفُ اعتياديًّا الممارساتِ الأخرى، بل عِبادتَيْ يسوع ومريم، أَعني التناولَ المقدس وتكريمَ العذراء، لأنها بالمقارنة مع بقية الممارسات هي كالذهب والفِضة بالنسبة إلى بقية المعادن.

إذًا من المهمّ جدًّا أن نعرفَ الممارسات الباطلةَ لنَتجنَّبها، والحقَّةَ لنعتنِقَها؛ ثم أَنْ نرى مِن بين هذه الممارسات الجيّدةِ أَيًّا مِنها هي الأكمل والأحسن والتي تعطي مجدًا لله أكثر وتُقدّسُنا أَزيَد لِنتعلَّقَ بها.

في علامات التكريم الباطل والحقيقي

نَقدر أنْ نميّزَ بين المصلين سبعةَ نماذجَ يقومون بممارساتٍ باطلة، هكذا: ١) المنتقِدون ٢) المُوَسوِسون ٣) المُتظاهِرون خارجيًّا ٤) المُعتَدّون بذَواتِهم ٥) المُتقلِّبون ٦) المُراؤون ٧) أصحابُ المَصالح.

١- المُصلّون المُنتقِدون

هم عادةً علماءُ متكبّرون من ذَوي النفوس القوية والمعتَدَّة بذاتها، يَتلون بعض الصلواتِ للعذراء القديسة، إلّا أنهم يَنتقدون تقريبًا كلَّ ممارسةٍ لها يقوم بها الشعب المتواضع ببساطة وقداسة، لأنها لا تَطيبُ لِخَيالِهم.

إنهم يَشُكّون بكل الأَعاجيب والحوادث المذكورة من رُواةِ ثِقةٍ، أو المستَقاة من أخبار الرَّهبنات التي تتكلم عن مَراحم العذراء مريم وقدرتها. يَرون بمَضَضٍ الشعبَ البسيط المتواضع راكعًا أمام مذبح أو صورةٍ للعذراء الطوباوية، أحيانًا في زاويةِ طريق، متضرّعين إلى الله، متّهمين

إيّاهم بالوَثنيّة، كأنهم يَعبدون الخشبَ أو الحجر، وقائلين إنهم لا يُحِبون هذه الممارسات الخارجية، لأنَّ نفوسَهم ليست ضعيفةً حتى تَثقَ بمِثلِ هذه القصصِ المنسوبة إلى أُمِّنا مريم.

وعندما تَذكُر لهم المدائحَ العجيبة التي يُطري عليها الآباءُ القديسون، يُجيبون بأنهم فاهوا بها كخُطباءَ مُغالين، أو يُعطون لتلك الأقوالِ شرحًا رديئًا. إنَّ هؤلاء المصلِّين غيرَ الحقيقيين والأناس المتكبرين والعالَميّين يُخيفون كثيرًا، ويُسيئون جدًّا إلى العذراء الطوباوية، ويُبعِدون عنها الشعوب، بحُجّةِ أنهم يريدون القضاء على سوءِ استعمالٍ.

٢ – المتعبِّدون الوَسواسيّون

هم أولئك الذين يخافون إهانةَ الابنِ عند تكريمِهم الأُمَّ، وأَنْ يَحُطّوا من قَدر الواحد بتعظيمِهم الآخَر. لا يتحملون أن تُعطَى العذراء مريم المدائحَ التي قدَّمها لها الآباءُ القديسون. يتبرَّمون من رؤيةِ الناس راكعين أمام مذبحها أكثر ممّا أمام القربان الأقدس، كما لو كان الواحدُ مخالِفًا للثاني، كأنَّ الذين يُصلّون أمامها، لا يَبتهلون بواسطتها إلى ابنها يسوع. إنهم لا يُحبون أن يُحكى عنها بتواتر، وأن يلتجئوا إليها غالبًا.

هاكُم بعضُ أقوالِهم المعتادة: لِمَ كلُّ المَسابح والأَخويات والإكرامات الخارجية لمريم؟ أليس هذا ناجمًا عن جهل؟ ويواصلون: إننا نَجعل بهذا ديانتَنا سُخريةً. كَلِّمونا عن المتعبِّدين ليسوعَ المسيح، ولْنَلتجئْ إليه لأنه وسيطُنا الأوحد، لنَكرِزْ به، فهو الجَوهَريّ.

إنَّ ما يقولونه هو الصَّواب من جهة، ولكن نظرًا إلى المقارنة التي يَعملونها لمنعِ إكرام مريم، فإنه خطرٌ جدًّا، وشِرْكٌ دقيقٌ نَصَبَه الخبيث بحُجّةِ خيرٍ أعظم. بالحقيقة، إننا لا نحترم أبدًا يسوعَ المسيح أكثر، إلّا عندما يَزيدُ احترامُنا لِأُمِّه، لأن احترامَنا لها، ما هو إلّا لكي نَحترمه هو أَزيَدَ، وذَهابَنا إليها، هو كما إلى الطريق الموَصِّل إلى هدفنا يسوع.

إنَّ الكنيسةَ المقدسة، بِوَحيٍ من الروح القدسِ تُباركُ مريمَ قبل ابنِها يسوع، فتقول: «مباركة أنتِ في النساء، ومُباركٌ ثمَرة بطنك يسوع»، ليس لأنَّ مريم هي أَسمى من يسوع، أو لأنها معادِلة له - وَقانا الله من هرطقةٍ لا يُمكن تَحمُّلُها - ولكن لكي نبارِكَ يسوع بِشَكلٍ أكملَ علينا أن نُبارِكَ مريم أوّلًا. وهكذا نقول بثقة مع كلّ المصلِّين الحقيقيين للعذراء القديسة، دون خوفٍ أو وَسواس: مباركةٌ أنتِ في النساء، ومباركٌ ثمَرةُ بطنِك يسوع.

٣ – المُصلُّون الظاهريّون

إنّ المصلّين الظاهريين هم الذين يتوقف تكريمُهم للعذراء مريم على ممارساتٍ خارجية لا غيرَ. فلا يَتذَّوقون من إكرامهم لها إلّا الظواهرَ، ولا عَجَبَ، فالروحُ الباطنيّ بَراءٌ منهم. تَراهم يَتلون مَسبحاتٍ كثيرة بسرعة، ويَسمعون قداديسَ بلا انتباه، ويذهبون إلى التَّطواف بدون وَرَعٍ، وينتمون إلى كلِّ الأخويات، ولكن دون إصلاح سيرتِهم، أو قَمعِ أَهوائِهم. وبدون الاقتداء بفضائلِ مريمَ المبارَكة، لا يُحبّون إلّا ما هو شُعوري من الإكرام، غيرَ متذوقين الجَوهريّ الأساسيّ، ولا يشعرون بلذةٍ في ممارساتِهم، يَخالُ لهم أَنهم لا يعملون شيئًا، فيَضطربون، ويُهملون كلّ شيء ويمارسون إكرامَهم بلا نِظام.

إنَّ العالَم مملوء من مِثلِ هؤلاء المصلين الظاهريين؛ أَمَّا المصلون المواظبون على الأمور الباطنية، فإنهم يفحصونها بدقّة، ولهذا يعتبرونها جوهرية، دونَ احتقارِ الاحتشامِ الخارجي المرافِق دومًا للإكرام الحقيقي.

٤ – المُصلّون المُعتَدّون بذَواتهم

هؤلاء هم خطأة يُرخون العَنانَ لأهوائِهم الفاسدة، ويحبون العالم؛ يُخفون تحت صِفةِ المسيحي الجميلة أو وراء الصلاة لمريم الطوباوية، كبرياءَهم أو بُخلَهم، عَهارتَهم أو سُكرَهم، غضبَهم أو حِلفانَهم، نَميمتَهم أو ظُلمَهم، فيلازِمون عاداتِهم الذَّميمة، دون أن يَغصِبوا ذاتَهم كثيرًا أو يُصلِحوها، مُطَمْئِنين أنفسَهم بأن الله يَغفر لهم، وبِأنّهم لن يَموتوا دون اعتراف لأنهم يُكَرّمون العذراء القديسة، ولا يُهملون مَسبحتَهم، أو لأنهم يصومون يوم السبت، أو لأنهم ينتمون إلى أخوية الوردية، أو لأنهم لابسون ثوبَ الكَرمَل، ومُسجَّلون بإحدى أخوياتها أو يحملون على ذاتهم ثوبَ العذراء، أو السلسلة الصغيرة للعذراء وما شاكَلَ ذلك.

فإذا قيل لهم بأنَّ ممارستَهم هي خدعةٌ شيطانية، وادِّعاءٌ خطرٌ بوُسعِهِ أن يؤدِّيَ بهم إلى الهلاك، لا يصدّقون ذلك، قائلين بأنَّ الله صالحٌ رحوم، لم يَخلُقْنا لكي يُهلِكَنا، لأنه لا يوجد إنسانٌ لا يُخطئ. فيُؤَمِّلون الاعتراف قبل مَماتهم، أو أنه يكفيهم أنْ يقولوا في ساعة الموت «أخطأتُ»، لا بل يَدَّعون أنهم يُكرِّمون العذراء القديسة، إذْ يُصلُّون يوميًّا بأمانة وتواضع سبعَ

مراتٍ أبانا والسلام لكِ، إكرامًا لها، كما يَتلون أحيانًا مَسبحتَها وفَرضَها، ويصومون إكرامًا لها ... إلخ، ويؤَيّدون قَولَهم بسَردِ رواياتٍ سمِعوها أو قَرؤوها في كتبٍ حقيقية أو مزوَّرة - لا يُهِمُّهم - عن أناسٍ ماتوا في الخطيئة المميتة، وبدون اعتراف، ونَظرًا إلى بعض الصلوات التي كانوا يصلّونها، أو ممارساتٍ تَقَوية يقومون بها إكرامًا لها، قاموا في جسدهم عجائِبيًّا واعترفوا وتابوا في ساعة موتهم، توبةً حقيقية ونالوا مغفرةَ خطاياهم، فخَلُصوا. ويأملون هم أيضًا الحصولَ على هذه الامتيازات التي حصلَ عليها أُولئك.

لا شيءَ في المسيحية أَتعسُ من هذا الادعاء الشيطاني، لأنه هل يجوز القول عن أحدٍ حقًّا إنه يُحِبّ مريم ويَكرهُها، عندما يَجرح بخطاياه ويَثقُب ويَصلِب ويُهين بلا شفَقة، اِبنَها يسوعَ المسيح؟ لو كانت مريم تساعد بشفقتِها أُناسًا كهؤلاء، لكانت تَسمحُ بارتكابِ المُوبِقات وتُؤازِر صالبي ومُهيني ابْنِها؛ فهل يَتجاسر أحدٌ على الافتكار بذلك؟

أقول إنَّ من يُسيء استعمالَ إكرامِ مريمَ بهذا الشّكل - هذا الإكرام الذي هو الأَقدسُ والأَسمى بعد العبادة لربِّنا في سرِّ القربان الأقدس - فإنه يرتكبُ نِفاقًا فظيعًا، هو أعظمُ نِفاق بعد تناولِ القربان بدون استحقاق.

أُصَرِّحُ بأنه لكي يُكرِمَ المَرءُ الأُمَّ الطوباويةَ، ليس من الضروري مُطلَقًا بأن يكونَ قديسًا لِدَرجة أنه يَحيد عن كلّ خطيئة - ولو أنَّ ذلك مرغوب فيه كثيرًا - بَيْدَ أنه يجب أن يكون أَقلَّه:

١ – قاصدًا بإخلاص أن يَحيدَ عن كلّ خطيئة مميتة تُهينُ الأمَّ كما تُهين الابنَ أيضًا.

٢ – أنْ يَغصِبَ ذاته لِتَجنُّبِ الخطيئة.

٣ – أن ينتمي إلى الأخويات ويتلو المَسبحة أو الوردية بكاملها، أو صلواتٍ أخرى ويصوم على شَرَفها وما شاكَلَ ذلك من الإكرام.

هذه هي نافعة جدًّا لارتداد الخاطئ وإنْ كان قاسيَ القلب، فإذا كان القارئ مُنزلِقًا في الهاوية فإني أنصحه بأَلّا يمارسَ بَعدُ هذه الأعمال إلّا مع النية بأن ينالَ من الله بشفاعة الأُمِّ القديسة، نعمةَ التوبة ومغفرةَ خطاياه، وأنْ يَغلِبَ عاداتِه الرَّديئة؛ فَلا يَبقى جامدًا بهدوء وسَكينة في حالةِ الخطيئة، ضدَّ تَوبيخِ ضميرِه متحدِّيًا يسوع والقديسين والمشوراتِ الإنجيلية.

٥ – المُصلُّون المتقلِّبون

هم أُولئك الذين يُكْرِمون العذراءَ القديسة حسَب الظروف والشعور. فتَراهم أحيانًا حارّين وطَورًا فاتِرين. يَظهَرون مرةً مستعدّين لِعمَل كلِّ شيء لخدمتِها، وبعدَه بقليل، كأنهم ليسوا هم ذاتَهم. يَعتنقون أولًا كلَّ الممارسات للعذراء الطوباوية، فينتمون إلى أَخويّاتها، ثم لا يمارسون أبدًا قوانينَها بأمانة، إنهم يَتقلَّبون كالقمر (يشوع ١٢/٢٧) فتَضعُهم مريم تحت قدمَيها، مع القمر، لأنهم متقلِّبون وغيرُ أهلٍ ليُحسَبوا بين خُدّامِها الأَمينين الثابتين. إنه لَأفضلُ أنْ لا يُحمِّلَ المَرءُ نفسَه عِبءَ صلواتٍ وممارساتٍ كثيرة، بل أنْ يمارسَ القليلَ منها بمحبة وأمانة، على الرَّغمِ من العالم والشيطان والجسد.

٦ – المصلون المُراؤون

هؤلاء هم كَذَبَةٌ يُخفون خطاياهم وعاداتِهم الذَّميمة تحت كَنَفِ العذراء القديسة، ليَراهم الناسُ أحسنَ ممّا هُم عليه.

٧ – المصلّون ذَوو المَصالح

يلتجئ هؤلاء إلى العذراء الطوباوية ليُحَصِّلوا مُرافعةً في المحاكم، أو يَتجنَّبوا خطرًا، أو لنَيْل شِفاءٍ من مرض، أو لِحاجةٍ ما. لولا هذه، لكانوا يَنسونها، فسَواءَ هؤلاء أو الذين سَبقوا، يُكْرِمونها كَذِبًا، وليسوا أهلًا للوقوف أمام الله أو أُمِّه المبارَكة.

إذًا، لنحترسْ من المصلّين المنتقِدين الذين لا يؤمنون بشيءٍ وينتقدون كلَّ شيء، ومن أصحاب الوَسواس، الذين يخافون من المبالغة في إكرامهم لمريم، اِحترامًا لابنها، ومن الظاهريين الذين يَعتمدون على الممارسات الخارجية فقط، ومن المتكبِّرين الذين يَتذرّعون بإكرامهم لها ليستمروا بخطاياهم، ومن المتقلِّبين، الذين بسبب خِفَّتِهم يغيّرون ممارساتِهم، أو يتركونها تمامًا لأصغرِ تجربةٍ، ومن المرائين الذين ينتمون إلى أخوياتها ويحملون شاراتِها، ليظُنَّ الناسُ أنهم صالحون، وأخيرًا من النَّفعيين الذين يلتجئون إليها للتخلص من الشرور الجسدية أو لِلحصول على الخُيور الزمنية.

رابعًا- الإكرام الحقيقي للعذراء مريم

هذا الإكرام هو:

١) باطنيّ
٢) رقيق
٣) مقدّس
٤) ثابت
٥) ومتجرّد.

١ – هو إكرامٌ باطنيّ

أعني أنه يَصدُر عن الروح والقلب، ويَنتُج عن التقدير الواجب للعذراء القديسة، عن فِكرتنا السامية لعظمتِها وعن محبّتِنا البَنَوية لها.

٢ – هو إكرامٌ رقيق

أَعني مملوءٌ ثقةً بالعذراء المباركة، كثقةِ الطِّفل بأُمِّه المُحِبّة. يجعل الإنسان أَن يلتجئَ إليها في كلّ حاجاته الجسدية والروحية، ببساطة وثقة ورِقّة، طالبًا عونَها العَطوفة، في كلّ حينٍ ومكانٍ وفي كلِّ أَمرٍ. في ارتياباته لنَيلِ الأنوار، في زَيَغانِهِ لتَقويم اعوجاجه، في تجاربه لتَشديدِه، في ضَعفِه لتَقويَتِهِ، في سَقطاتِهِ لنُهوضِهِ، في خمودِ هِمَّتِه، لتَنشيطِها، في وَساوسه للتَّخلص منها، في صلبانه وأَشغاله ونكسات الحياة، للحصول على التغزية، وأخيرًا في جميع مَساوئِ الجسد والروح، مريمُ هي المَلجأُ الدائم، دونَ خوفٍ مِن إزعاجِها أو إهانةِ ابْنِها.

٣ – هو إكرامٌ مقدَّس

يَحمِلُ الإنسانَ على تَجنُّب الخطيئة والاقتداء بفضائل أمِّه مريم، لا سِيَّما بتواضعها العميق وإيمانها الحي وطاعتها وصلاتها غيرِ المنقطعة، وأَمانتها التامّة وطهارتها الملائكية ومحبتها

المتَّقِدة وصبرِها الجميل ولُطفِها الفائق وحكمتِها العديمةِ النَّظير؛ هذه هي الفضائلُ العَشرةُ التي سَطعَت فيها دَومًا.

٤ – هو إكرامٌ ثابت

أيْ يُوَطِّد الإنسانَ في الخَير ويَحمِلُه على عدم الحِيادِ عنه وتركِ الممارسات الروحية بسهولة، فيُعطي الشجاعةَ ضدَّ أَهواءِ العالم وتقلّباته وتعاليمه، ويُخمِدُ شهواتِ الجسد ويَطرُدُ الشيطانَ في تجاربه. فمَن يُكرِّمُ مريمَ حقًّا ليس متقلِّبًا في مَشاعِرِهِ، فلا تَراه يُوَسوس ولا يَهاب المِحَن. إلّا أن هذا لا يعني أنه لا يسقطُ رُبَّما أحيانًا، أو لا يشعر بِاليُبوسة الروحية وغيرِ ذلك؛ لكنه إذا ما سقط فإنه يَنهض سريعًا، باسطًا يدَ الثقةِ لأمِّه الحنون لتَرفعَه، وحين لا يشعرُ بلذَّةٍ في التَّقوى، فإنه لا يَغتمُّ، لأنَّ البارَّ يَحيا بالإيمان (عبرانيين ١٠/٣٨) وبيسوع ومريم، لا بِشعوره الحِسّيّ والجَسديّ.

٥ – هو إِكرامٌ مُتجرِّد

يُلهِمُ المرءَ على عدم التفتيشِ عن المَصلحة الشخصية، بل عن الله وأُمِّه القديسة. إنَّ الإكرامَ الحقيقيَّ لا يخدُم مريَم بروحِ المنفعة أو المصلحة، ولا حتى لخيرٍ زَمنيّ أو روحيّ، وقتيٍّ أو دائم، بل فقط لأنها تَستحقُّ ذلك، وفي تكميل ذلك يَصِلُ إلى قمّةِ الخدمة الواجبة لله. فمَن هو متجرِّدٌ في إكرامِه، لا يُحبُّ مريمَ بسبب عطائِها، ولكن لأنها أهلٌ لذلك، فتَجِبُ مَحبَّتُها وخدمتُها بأمانةٍ في الضَّجَر واليُبوسة، في الحَلاوةِ والعُذوبة؛ يُحبُّها على السَّواء، سَواءٌ كانت فوق الجُلجلة أَمْ في عُرس قانا، فهذا الإكرام الحقيقي هو المَرضيُّ والثَّمين في أَعيُنِ يسوع وأُمِّه القديسة، وطوبى لمَن يمارسُه.

أَشعرُ بالسعادة لو وقع هذا الكُتيِّبُ بِيَدِ إنسانٍ وُلد من الله ومريم، وليس من دمٍ ولا من مشيئةِ جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ (يوحنا ١/١٣)، ليَكشِفَ له الروحُ القدس ويُلهِمَه سُمُوَّ وقيمةَ الإكرامِ الحقيقي الراسخِ لمريم، والذي كنتُ أَوَدُّ أَنْ أكتبَه بدَمي – إنْ كان ذلك يُجدي نفعًا أكثر - لِإدخال هذه الحقائق في العقول.

إني أَشعُر أكثر من أيِّ وقتٍ آخَر وآمَلُ طالبًا من الله، بأنَّ كلَّ ما رَسَّختُهُ عميقًا في القلوب سيُعطي للعذراء الطوباوية، عاجلًا أَمْ آجلًا، أبناءً كثيرين وخُدّامًا وعبيدَ محبةٍ، أَزْيَدَ من أيِّ زمنٍ مَضَى، وأن يملِكَ سيِّدي المُحِبُّ يسوع على القلوب، بواسطتها أكثرَ فأكثر.

أَرى بعيدًا وحوشًا كثيرة حانقة، تَهجُمُ لتُمزِّقَ بأَنيابها الشيطانية هذا الكُتيِّب، محاوِلةً إلقاءَهُ في الظُّلُمات وفي قَعرِ صُندوق، كَيلا يرى النورَ أبدًا، مهاجِمين ومضطهِدين قُرّاءَه أيضًا. ولكن لا بأسَ بذلك، لا بل إنَّ الأَفضل، إذْ يُشجِّعُني هذا المنظرُ ويجعلني أن آمَلَ نجاحًا باهرًا، لأني أرى بعيدًا، جيشًا عَرَمْرَمًا من جنودٍ بَواسل وأبطالٍ من كِلا الجِنسين، يُحاربون العالمَ والشيطان والطبيعة الفاسدة، ويَنتصرون عليهم. ومَن يقرأ لِيَفهمَ، ومَن يقدر أن يفهمَ فَلْيَفهَم (متّى ١٢/١٩).

في ممارسة الإكرام الحقيقي لمريمَ العذراء

١ – المُمارساتُ العامّة

هناك عِدّة ممارسات باطنية، أُوجِزُ أَهمَّها: ١) تكريمُها كأُمِّ الله، المستحِقّة إكرامًا ساميًا يَفوقُ احترامَ وتقديرَ جميعِ القديسين الآخَرين، لأَنها عملُ النعمة الإلهية الأَساسيُّ والأول بعد يسوعَ المسيح، الإلهِ الحقِّ والإنسانِ الحقِّ؛ ٢) تَأَمُّل فضائلَها وامتيازاتِها وأعمالَها؛ ٣) تَأَمُّل عظائمَها؛ ٤) تقديمُ أَفعالِ المحبة والمديح ومعرفةِ الجميل نَحوَها؛ ٥) الاستغاثةُ بها قلبيًّا؛ ٦) تقديمُ الذات لها والاتّحاد معها؛ ٧) القيامُ بأعمالنا بُغْيَةَ إرضائِها؛ ٨) بَدْءُ وإنهاء كلِّ أَعمالنا بواسطتها، فيها ومعها ولأجلِها، وذلك لكي نَعملَها بيسوعَ المسيح وفيه ومعه ولأجله، لأنه هو غايتُنا الأخيرة.

أمَّا الممارساتُ الخارجية، فهي أيضًا كثيرة، وهاكَ أهمُّها:

١) الانتماءُ إلى أَخويّاتِها والانخراطُ في جمعيّاتِها؛ ٢) الدخولُ في الرَّهبنَات المؤسَّسة على شرفِها؛ ٣) نَشرُ مدائِحِها؛ ٤) القيامُ بصدَقاتٍ وأصوامٍ وإماتاتٍ روحية أو جسدية إكرامًا لها؛ ٥) حملُ شاراتِها مثل الوَردية المقدَّسة، أو ثَوبِ الكَرمَل أو سِلسلتَها؛ ٦) تِلاوةُ الوَردية المقدسة بانتباهٍ وخُشوع واحتشام، إكرامًا للأسرار الرئيسية التي تُمثِّل حياةَ المسيح، وهي خمسةَ عشرَ سِرًّا: أسرارُ الفرحِ الخمسةُ وهي: البشارةُ، زيارةُ مريمَ لِنَسيبتِها أَليصابات، ولادةُ يسوع، تَقدِمتُه

في الهيكل، ولُقْياه في الهيكل بعد فُقدانِه ثلاثةَ أيام؛ أمّا أسرارُ الحُزن الخمسة فهي: مُنازَعُة يسوع في البستان، جَلدُ يسوع على العامود، تكليلُ رأسِه بالشوك، حَمْلُه للصليب على طريقِ الجلجلة، وموتُه فوقَ الصليب؛ وأسرارُ المجد الخمسة هي: قيامةُ يسوع من بينِ الأموات، صعودُه إلى السماء، حُلولُ الروحِ القدس على مريم والتلاميذ، انتقالُها إلى السماء، تَكليلُها من قِبَلِ الثالوث الأقدس؛ ويمكنُ أن تُتلى مَسبحةٌ مؤلَّفةٌ من ستّةٍ أو سبعةِ أسرارٍ إكرامًا للسِّنين التي يُظَنُّ أنَّ العذراء قضَتْها على الأرض، بعد القيامة؛ أو المَسبحة الصغيرةُ المؤلَّفةُ من ثلاثِ مراتٍ أبانا الذي واثنَتَيْ عشْرةَ مرةً السلامُ لك، إكرامًا لإكليلِها المؤلَّفِ من اثنَيْ عشَرَ نَجمًا أو امتيازًا؛ أو أن يُتلَى فرضُها المقبول من الكنيسة، أو المزامير الصغيرة المؤلَّفة من القديس بوناڤِنتورا، وهي مزامير عاطفية تكريمية مؤثِّرة؛ أو أيضًا أربعَ عشْرةَ مرّةً أبانا والسلام إكرامًا لأفراحها الأربعَ عَشْرةَ؛ أو أيضًا بعضُ الصلوات الأخرى والمدائح والأناشيد الكَنَسيّة مِثلُ السلام عليك يا ملكة، أو الرحمة، وغيرِها، حسَبَ مواسم السنة الطقسية، مثلِ السلام عليك يا نَجمةَ البحر... أو أيّتها السُّلطانة المَمَجَّدة، أو «تُعظِّم نفسي الرب» أو غيرِها من الصلوات التَّكريمية؛ ٧) ترتيلُ المدائح الروحية إكرامًا لها، وتعليمُ الآخَرين أيضًا وحثُّهم على ذلك؛ ٨) الانحناء مع تلاوة عدّة مرات «السلام عليك يا مريم العذراء الأمينة» كلَّ صباح، لنَيل الأمانة نحو نِعَمِ الله طَوالَ النهار، وتلاوة كلِّ مساء «السلام عليك يا مريم أمَّ الرحمة» لطلب الصَّفح من الله بواسطتها عن الخطايا المقتَرفة خلالَ النهار؛ ٩) الاهتمامُ بأَخويّاتها، وتزيينُ مذابحِها وتكليلُ وتجميلُ صوَرِها؛ ١٠) حمْلُ صورِها أثناءَ التَّطوافِ، وجعْل الآخرين أيضًا أَن يفعلوا ذلك، وحمْلُ صورتِها على شخصِنا كسلاحٍ قديرٍ ضدَّ اللَّعين؛ ١١) الاهتمامُ بحمْل صورِها أو اِسمِها، ووضعُها سَواءٌ في الكنائس أو في الدّور، أو على الأبواب ومداخل المُدن والكنائس والبيوت؛ ١٢) تكريسُ الذات لها بشكلٍ خاصٍّ واحتفاليّ.

وهناك عدّةُ ممارساتٍ أُخرى لإكرامِ العذراء الطوباوية، تلك التي أَلهمَها الروحُ القدس للأَنفس القديسة، وهي تَقَويّة يُمكن مطالعتُها مفصلًا في كتاب «الفِردَوس المفتوح»، الذي من تأليف الأب بولس باري اليسوعي، حيث جمَعَ فيه، عددًا كبيرًا من الممارسات، قام بها القديسون إكرامًا لمريم العذراء، ممارساتٍ مفيدة جدًا لتقديس النفوس، شريطةَ القيام بها كما يجب، أَعني: ١) بِنِيّةٍ صالحة ومستقيمة لإرضاءِ الله فقط، وبالاتّحاد مع يسوع المسيح كفّارتِنا الأخيرة، ٢) بانتباهٍ دونَ طَيشٍ إراديّ، ٣) بتَقوى وبِلا استعجالٍ أو تَهاون، ٤) باحتشامٍ ولَياقةٍ لنعطيَ المِثالَ الصالح.

٢ – الممارساتُ الخاصّة الكاملة

أَقول بصراحةٍ إنني قرأت تقريبًا كلَّ الكتبِ التي تتكلمُ عن تكريمِ العذراء مريم، وتحدَّثْتُ بدالّةٍ مع أَكبر القديسين والعلماء المعاصِرين، إلَّا أنني لم أعرفْ قَطُّ إكرامًا آخر يُضاهي الإكرامَ الذي يَطلبُ من النفس تضحيةً أكبر نحو الله، ويُفْرِغُها من محبّتها الذاتية ويَحفظها أمينةً أكثر للنعمة، كما يَحفظ النعمةَ فيها، ويُوحِّدُها مع يسوعَ المسيح بِشكلٍ كامل، وأخيرًا، يُعطي لله مجدًا أكبر، مقدِّسًا النفسَ ومُفيدًا القريبَ. ويتوقفُ أساس هذا التكريم على الباطن، لِذا لا يفهمُه الكثيرون، ويقف أَغلبُهم على الظواهر؛ والذين يفهمونه باطنيًا، هم درجات، فأولئك الذين يُصبِح لهم هذا النوع من الإكرام ممارسةً اعتيادية، سوف يَتقدّمون من فضيلة إلى أخرى، ومن نعمة إلى نعمة، ومن نور إلى نور، ليَصلوا إلى الحُلولِ الذاتيّ في يسوع المسيح، وإلى مِلءِ الزمان على الأرض وإلى المجد في السماء.

في طبيعة الإكرام الحقيقي للعذراء مريم

أو في التكريس التّامّ ليسوع المسيح

بما أَنَّ كلَّ كمالِنا يتوقف على أن نكونَ شبيهين ومتّحِدين ومكرَّسين ليسوع المسيح، فالعبادةُ الأَمثل من جميعِ العبادات، هي بلا رَيبٍ، تلك التي تجعلُنا شبيهين ومتّحِدين ومكرَّسين بِشَكلٍ أكمل له. والحالُ هو أنّ مريم هي الأكثرُ شَبَهًا بيسوعَ المسيح من كلِّ الخلائق. إِذًا يَنتُج أنّه ما بين جميعِ العباداتِ، تِلك التي تُكرِّس وتَجعلُ النفسَ شَبيهةً أكثرَ من غيرها بسَيّدنا الإلهي، هي تكريمُ العذراء مريم، وكلَّما كانت النفس أكثرَ تكريسًا لها، كُلَّما ستكون أيضًا أكثر تكريسًا ليسوع المسيح.

لذا فإن التكريسَ التامَّ ليسوعَ المسيح، ما هو إلّا تكريسُ النفسِ الكُلِّيُّ والكامل لمريمَ المباركة، وهذه هي الممارسة التي أَدعو إليها، وإن أردتَ فهي تجديدٌ حقيقي لمقاصدِ أو مواعيدِ العماد.

١- في تكريس النفس التامّ والكامل لمريمَ العذراء

تقومُ هذه الممارسةُ على بذْلِ الإنسان ذاتَه بجُملتِها لمريم، ليكونَ بواسطتِها كلِّيًّا ليسوع. لِذا يجب أن نُهدي لها: ١) جَسدَنا مع كلّ حَواسِّه وأعضائِهِ، ٢) نفسَنا بكل قُواها، ٣) خيراتِنا الخارجية المسمّاة الأموال، الحاضرة منها والمستقبَليّة، ٤) خيراتِنا الباطنية والروحية التي هي استحقاقاتُنا وفَضائلُنا وأعمالُنا الصالحة الماضية والحاليّة والمُقبِلة؛ بكلمةٍ، كلُّ ما هو لنا في النِّظام الطبيعي والروحي، وكلُّ ما سنَحوز عليه في المستقبل، على الأرض وفي السماء، دون تَحفُّظٍ ولا استثناء، إلى آخِرِ فَلسٍ، وحتّى أقلِّ عملٍ صالح، وذلك إلى الأبد، دون أن ندَّعيَ ولا نرجو ثوابًا آخَر، عدا شَرَفِ الانتماء إلى يسوع المسيح بواسطتها وفيها، رغم أنَّ هذه السيدةُ هي دَومًا أسخى الخلائقِ وأكثرُها عِرفانًا للجميل.

ولا بُدَّ هنا من مُلاحظة أنَّ أعمالَنا الصالحة تَحمِل صِفَتين هما: التَّعويضَ والاستحقاق، أو قيمةُ التَّعويض والطلب وثوابَ الاستحقاق؛ فالأول هو عِبارةٌ عن كلِّ عملٍ صالح يُكَفِّر أو يُعوِّض عن القصاص الواجب للخطيئة، أو يَحصل على نعمة جديدة، بينما الثاني هو العملُ الصالح الذي هو أَهلٌ للحصول على النعمة والمجدِ الأبدي. فعِند تكريس نفسِنا لمريم، نَهَبُها ثوابَنا التَّكفيريّ والاستمداديّ والاستحقاقيّ، أو بكلمة أُخرى، نُقدّم لها: استحقاقاتِنا ونِعَمَنا وفضائلَنا، لا لتُوزِّعَها على الآخَرين - الأمرُ الذي هو غيرُ ممكنٍ، لأنَّ يسوعَ المسيح الذي كان كَفيلَنا لدى الآب قدِ استطاعَ هو فقط إشراكَنا باستحقاقاتِه - بل لتحفظَها لنا وتُنمّيَها وتَجعلَها أكثرَ بهاءً، فنقدّمُ لها مع ذلك تعويضاتِنا أو تكفيراتِنا لتَمنحَها لِمَن تُريد لمجد الله الأعظم.

يَنتُجُ عن هذا بأنَّ هذه الممارسةَ تُعطي ليسوع المسيح كلَّ شيءٍ، وبأكمل شكلٍ ممكن، أكثر من أيِّ إكرامٍ آخَر، لا سِيَّما إذْ تَمنحُه بيَدَيْ مريم، لا فقط قِسمًا من الوقت أو جزءًا من الأعمال الصالحة، أو شيئًا من الاستحقاقات و الإماتات، ولكنْ كلَّ شيء، حتى حقَّ الاهتمام بالخَيرات الباطنية والاستحقاقات التي يَكتسبُها المَرءُ يومًا بعد آخَر، والتَّعويضات، الأمرُ الذي لا يَتمُّ في أيَّة رهبنةٍ كانت، لأنَّ هذه تُقدِّمُ لله، بِنُذور الفقر والعِفّة والطاعة، الأموالَ ومَلذّاتِ الجسد والإرادةَ الخاصّة لا غيرَ.

هكذا، فإنَّ الشخصَ المكرِّس ذاتَه بهذا الشكل، والمُضحّي بها ليسوع المسيح، بواسطة مريم، لا يَحِقُّ له بعدُ أن يَهتمَّ بشيءٍ، لأنَّ كلَّ ما له صار لمريم التي تُدبِّرُه حَسَبَ إرادةِ ابنِها ولمجدِه الأعظم، دون أن يُعيقَ ذلك بالطَّبع واجباتِ الحال التي هو فيها الآن، أو التي سيكون فيها في المستقبل - مثلًا الكاهن الذي يجب عليه أن يُخصِّصَ نِيّاتِ القَداديس لأشخاصٍ معيَّنين-. إذًا،

يَتمُّ التكريس للعذراء الطوباوية وليسوع المسيح معًا؛ فلِلعذراء كوسيطةٍ كاملةٍ اختارها يسوع لنتَّحد مع بعضنا، وله كغايتِنا الأخيرة بما أنه مخلِّصُنا وإلهُنا، ولنا منه كلُّ ما نحن عليه.

٢- في أنّ هذه الممارسة هي تجديدٌ كامل لمواعيد المعمودية المقدسة

قلتُ إنَّ هذه الممارسة يمكن تَسميتُها جيّدًا: تجديدٌ كاملٌ لمواعيد العماد. لأنَّ كلَّ مسيحيّ كان قبلَ اعتماده عبدًا للخطيئة، وعند قَبولِه العماد كَفَر احتفاليًّا بالشيطان - سَواءٌ فعل ذلك هو شخصيًا أَمْ بِفَمِ العَرّاب أو العَرّابة - وبكلّ أباطيلِه وأعمالِه واتّخذ يسوعَ المسيح معلِّمًا له وسيّدًا مُطلَقًا يَخضعُ له كعبدٍ بِالحُبّ، وهذا ما تَعنيه المواعيد: أَكفُر بالشيطان وبالعالَم وبالخطيئة، مخصِّصًا ذاتَه بجُملتِها ليسوعَ المسيح بواسطة مريم. إلّا أنه ههنا يَفعلُ أكثر من ذلك، لأنّه في المعمودية يُعلِن ذلك اعتياديًّا بفَمِ الإشبين أو الإشبينة، فيقدِّمُ ذاتَه ليسوع المسيح بواسطة الوَكيل، بينما في هذه الممارَسة، يقدِّمُ هو ذاتَه، أَيْ نفسَه، باختيارِه ومَعرفتِه التامّة.

ثم في المعمودية المقدسة، لا يُعطي المَرءُ ذاتَه ليسوعَ المسيح بواسطة مريم - أَقلَّه ليس بِشَكلٍ صريح - ولا يُعطي ليسوعَ المسيح، استحقاقَ أعمالِه الصالحة، فيَبقى الإنسانُ بعدَ المعمودية حُرًّا في التَّصرُّف فيها، مقدِّمًا إيّاها، إمّا للآخَرين، أو يَحتفظ بها لذاتِه؛ بينما في هذه الممارسة، يُخصِّصُ الإنسان ذاتَه لمخلِّصِنا الإلهي، بيَدَيْ مريم، ويُكرِّس له استحقاقَ أَعمالِه كلِّها.

يقول القديس توما، إنَّ البشرَ في المعمودية المقدسة يَنذِرون بجَحدِ الشيطان وأَباطيلِه (الخُلاصة اللاهوتية ٢، ٢، ٨٨، ٢)؛ وحسَبَ القديسِ أَغُسطينُس، إنَّ هذا النَّذرَ هو الأكبرُ والأكثرُ ضرورةً (رسالته لپَوْلينُس، ٥٩). هذا ما يؤيِّده الحُقوقيون أيضًا بقولِهم: إنَّ أهمَّ نَذرٍ، هو ذاك الذي نَعمَلُه في العماد، ومع ذلك، فمَن هو هذا الذي يُحافظ على هذا النَّذر الكبير؟ ومَن هو ذاك الذي يَتمسَّكُ بأمانةٍ بمواعيدِ المعمودية، ومن أين يأتي هذا الفسادُ العامّ؟ أَلَيس من نِسيان هذه الوعودِ التي قُمنا بها، ومِن عدم تأييدِ الإنسان شخصيًا هذه المعاهَدةَ التي عَمِلَها مع الله - أيْ العَرّابُ أو العَرّابةُ باسمِهِ؟

هذه هي الحقيقةُ، حتى أنَّ مَجمع سَنْسِ* المُلتَئِم بأمرِ الملك لويس الصالح لإصلاح الفسادِ الكبير بين المسيحيين، أَقرَّ بأنَّ العلة لذلك كانت متأتّيةً من النِّسيان والجهل لهذه

المواعيد، فلم يَجدْ واسطةً أفضلَ لمُداواةِ هذا الشر الفظيع، إلّا حَمْلَهم على تجديدِ تلك المواعيد.

ويُحرِّضُ التعليم المسيحي «لمجمع تْرِنْتو» - الشارح الأمين للمجمع - الكهنةَ على القيام بِنفسِ الشيء، أعني حَمْلَ الشعب ليَتذكرَ ويؤمن بأنه مقيَّدٌ ومكرَّسٌ لربنا يسوع المسيح، كالعبد لسيّدِه،

* هو مَجمع مَحلّي غير مَسكوني قديم، قُربَ پاريس في فرنسا.

فيكتب: «على الكاهن أن يَحُثَّ الشعبَ ليَعلم أنه من العدل والصَّواب، أن يُكرِّسَ ذاتَه لمُخلِّصنا وسيّدنا إلى الأبد، كالعبد لسيده» (١، ٣، ٢، ١٥).

فإذا كان المَجمعُ والآباء والخبرةُ تُبيّن بأنَّ أحسنَ وسيلةٍ لمُداواة فسادِ المسيحيين هو تَذَكُّر واجباتِ المعموديةِ وتجديدُ مواعيدِها، أَفَليسَ إذًا من الأفضل فِعلُ ذلك من خلال تكريسِ ذواتِنا للرب بواسطة أُمِّه القديسة؟

يَعترضُ البعضُ بأنَّ هذا التكريمَ هو صيغةٌ جديدة. أُجيبُ بأنَّ مجامعَ كَنَسيّة وعددًا من آباء الكنيسة والكتبة الروحيين القُدامَى والمعاصرين، يتكلمون عن تجديد مواعيدِ المعمودية كصيغةِ إكرامٍ موجودة قديمًا ويوصون بها.

وقد يَظُنُّ آخرون بأنَّ هذا النوعَ من الإكرام، طالما يجعلُنا نُهدي كلَّ أَعمالنا الصالحة من صلواتٍ وصدقات وتَقشُّفاتٍ، فإنه يجعلُنا نَحرِمُ أَهلَنا وأصدقاءَنا والمحسنين إلينا من مساعدتِهم بها. أقولُ بأنه لَأمرٌ لا يَقبلُ التصديق أن يَتحمّلَ أصدقاؤنا وأهلُنا والمحسنون إلينا، العذابَ بسبب تكريمنا وتكريس أنفسنا دون قيدٍ لخدمة ربِّنا وأُمه القديسة إنَّ هذا القولَ يُهينُ قدرةَ وجودةَ يسوع ومريم اللَّذَيْن يعرفان جيدًا كيف يساعدان هؤلاء، سَواءٌ بواسطة استحقاقاتِنا أو بطُرقٍ أُخرى.

إنَّ هذه الإكرام لا يَمنعُ بتاتًا، بأن نصلي عِوَضَ الآخرين، سَواءٌ كانوا أَحياءً أَمْ متَوفّين، رغم أنَّ توزيع أعمالِنا الصالحة هو مَنوطٌ بإرادة العذراءِ الطوباوية، فإنَّ هذا يجعلُنا نُصلّي بثقةٍ أعظم.

كمِثلِ شخصٍ وهبَ كلَّ ما له لأميرٍ كبير حبًّا بتكريمه، فإذا طلب ذلك الغنيُّ شيئًا من أَميره، ليَتصدَّق على أحد أصدقائِه، فإنه لا فقط لا يُخيِّب أملَه، ولكنّه يجعلُه سعيدًا ليُظهِرَ تقديرَه لِما عَمِلَه نَحوه. وهكذا لا يَدَع ربُّنا وأمُّه المباركة أن نَغلِبَهما سَخاءً.

وقد يَحتجُّ آخَرون بقولِهم: إذا قدَّمْنا كلَّ أعمالنا الصالحة إلى العذراء القديسة لتُوزِّعَها، أفلا نتعذب في المَطهر زمنًا أطول؟ إنَّ هذا الاعتراضَ نابعٌ عن الأنانية وعن جهلِ سخاءِ الربِّ وأمِّه المبارَكة. هل من المعقول أنَّ شخصًا وَرِعًا وسخيًّا يَوَدُّ الاهتمامَ بمصالحِ الله أكثرَ من أموره الفردية، هل هذا الشخص، الذي قَدّم كلَّ ما له لله، دون قيدٍ ولا شرط، ولا يتنفَّسُ إلّا لِمجد الرب يسوع وأمه القديسة، هل يُعقَل بأن يُقاصَصَ في العالم الآخَر، بسبب سخائِه وغَيرتِه المتَّقِدة. لا ريبَ أنَّ هذا الإنسانَ سينالُ من جودةِ الربِّ وأمِّه، أكثرَ بكثير، سَواءٌ هَهُنا أو في ما بعد هذه الحياة، وعلى كلّ الأَصعِدة، من أفضالٍ عَميمة في حقل الطّبيعةِ والنِّعمةِ والمجد.

خامسًا- في الأسباب التي تَدعونا إلى هذا التكريم

١ – **إنَّ هذا التكريمَ يَعهدُ بِنا كُلِّيَّةً إلى خدمةِ الله**، ولا نستطيعُ تَصوُّر وظيفةٍ أرضيةٍ أَسمى من هذه الخدمة. إنَّ خادمَ الله هو أغنى وأقدرُ وأنبلُ من كلّ ملوكِ الأرض وأباطرتها - إذا لم يكن هؤلاء من خُدّامِهِ تعالى - ومن كلّ الثروات والسُّلطة والمَقام. إنَّ العبدَ الأمين والمُحبّ ليسوع بواسطة مريم، الذي لم يدَّخرْ لذاته شيئًا، يفوقُ كلَّ ذهبِ الأرض وجمالِ السماوات.

إنَّ الرهبناتِ والجمعياتِ والأخوياتِ المؤسَّسة لإكرامِ ربِّنا وأُمِّه القديسة، والتي تعملُ خيرًا كبيرًا في المسيحية، لا تَهَبُ كلَّ شيءٍ، دون قيدٍ، لأنها لا تَفرِضُ على أعضائها إلّا بعضَ ممارساتٍ وأعمال لتكميل واجباتهم، تاركةً إياهم أحرارًا في بقية أعمالِهم وأوقات حياتهم. بينما هذا الإكرامُ يَطلب مِمَّن يمارسه أن يقدّمَ ليسوع ولمريم كلَّ أفكارِهِ وأفعالِه وآلامِه، وأوقاتِ حياتِه، فسَواء كان ساهرًا أَمْ نائمًا، سَواءٌ أكل أَمْ شرِب، سَواءٌ مارس أكبرَ الأعمال أَمْ أحقرَها، فإنه يفعل ذلك - ولو أنه لا يفكّر به – لِأجل يسوع ومريم، بفضل تقدمته، إلّا اللَّهم إذا ما تراجع عنها صريحًا.

لذا لا يوجد إكرامٌ آخر أفضلُ منه، حتى إنْ تَسرَّبت بعضُ النقائص في أَعماله؛ ويسوع الذي وعد بأن يُعطي مئة ضِعفٍ لمن يترك من أجله بعضَ الخيور الخارجية (متى ١٩/٢٩)، ماذا ستكون مكافأته لمن ضحَّى له حتى بخيراته الباطنية والروحية؟

لقد منَحنا يسوع، صديقُنا العظيم، كلَّ شيء له من جسد ونفس وفضائل ونِعم واستحقاقات، وبتقديمِهِ ذاتَه لنا بجُملتها، قد اكتَسبَنا حسَبَ قَول القديس بِرنار؛ أَفَليس من العدل ومِن العِرفان بِالجميل أن نبادرَه نحن أيضًا بدَورنا، وأن نُعطي له كلَّ ما لنا وقد سبقَنا في العطاء، وسوف نختبر في حياتنا وبعد مماتنا، بل مَدى الأبدية كلِّها كم هو كريمٌ نحونا؟

إنَّ هذا التكريمَ يجعلُنا أن نقتدي بمثال يسوع والله ذاتِهِ، وأن نمارسَ به التواضع. لم يستنكفْ هذا المعلِّمُ الصالح من أن يُغلَقَ عليهِ في أحشاء العذراء القديسة كأسيرٍ وعبدِ حبّ، وأن يكون خاضعًا لها وطائعًا مدةَ ثلاثين سنة. بالحقيقة، يَتوهُ العقلُ البشري عند تأمّلِه العميق موقفَ الكلمةِ المتجسد الذي، رَغم قدرتِه، لم يُرِدْ أنْ يتقدمَ إلى الناس مباشرةً، بل بواسطة العذراء الطوباوية، فلم يُرِدْ أن يدخلَ العالمَ بعُمرِ رجلٍ كامل، وبِشَكلٍ مستقل عن الآخرين، بل جاء كطفلٍ مسكين وصغير، متعلِّقٍ باهتمامِ وتدبيرِ أُمِّه القديسة.

٢- **إنَّه بِهذه الحكمةَ اللامتناهيةَ**، التي كان لها الشوق العظيم في تمجيدِ الله وخلاصِ البشر، لم يَجد قَطُّ وسيلةً أكملَ وأقصرَ من **خضوعه في كلّ شيء للأمِّ العذراء**، لا فقط مدةَ بِضعِ سنواتٍ من حياته، كبقيّةِ الأطفال والأولاد، ولكن **لمَدى ثلاثين سنة**، وقد أَعطى بذلك مجدًا أكبرَ لله الآب، مِمّا لو كانت تُستعملُ في اجتراح العجائب أو الوعظ لاهتداء البشر - ولو كانَ هذا الفرضُ غيرَ صحيح - كما فعل. فهل نحن أَكثرُ حكمةً وفَهمًا من الحكمة الإلهية؟ هل من حاجةٍ إلى أن نذكّرَ بما قلتُه بخصوص الثالوث المجيد السامي، الذي يعلّمنا الخضوعَ للعذراء مريم؟ إنَّ الآب لم يُعطِ ولن يعطيَ ابنَه إلا بواسطتها، ولا يصيرُ البشر أبناءَ الله إلا بها، ولا يُفيضُ نِعَمَه عليهم إلا بواسطتها. وكذلك الله الابن، لم يُعطَ لجميع الناس إلا بها، ولا يكون ويُولَد كلَّ يوم إلا بها وباتّحادها مع الروح القدوس، فلا يُشرِك استحقاقاتِه وفضائلَه إلا بواسطتها؛ والروح القدس لم يكوِّن يسوعَ المسيح إلا بواسطتها، ولا يكوّن أعضاءَ جسدِه السِّرِّيّ إلا بها. فبعدَ هذه الأمثلة المُلِحّة من قِبَلِ الثالوث الأقدس، هل بوُسعِنا، دون أن نُرمَى بأقصى العَمى الروحي، أن نَستغني عن مريم وأن لا نكرّسَ ذواتِنا لها ونَخضعَ لها حتى نذهبَ إلى الله، ونُضحّي بذاتنا لأجله تعالى؟

ويقولُ القديس بوناڤِنتورا بعد أوريجانُس: «لمريم ابنان، الواحد إنسان إله، والآخر إنسان محض، فهي أمّ الأول جسديًا، والثاني روحيًا». أما القديس بِرنار فإنه يكتب: «هذه هي إرادةُ الله، على أن نَحصُلَ على كلّ شيء بواسطة مريم. فإذا كانت لنا المواهبُ الخَلاصية والنعمة والرجاء، فلنَعْلَم أَنها كلَّها تسيلُ من يديها». أو أيضًا: «كنتم غيرَ أَهلٍ لقَبول النِّعم الإلهية، لِذا أُعطِيَت لمريم كيما، كلَّما تحصلون عليها يكون ذلك بواسطتها». ويقول القديس بِرنردينُس السِّياني بدَوره: «تُوَزَّع جميعُ المواهب والفضائلِ والنِّعَمِ التي مِن الروح القدس بيَدَي مريم، لِمَن تريدُ وعندما تريد وكيفما تريد».

«لمَّا رأى الله - يواصل بِرنار- بأننا غيرُ أَهلٍ لقَبول نِعَمِه مباشرةً، مَنَحَها لمريم، لنحصُلَ عليها بواسطتها، فيَجدَ مجدَه في الحصول بواسطة مريم، مع عرفانِنا بالجميل واحترامِنا والمحبة التي يجب تأديتُها له على إنعامِه. إذًا من العدل أن نقتديَ بهذا المثل الإلهي، أي أن نعيدَ الشكرانَ إلى المصدر بنفسِ القناةِ التي جاءَتنا من خلالِها النعمة».

هذا ما نعمَلُه بهذا الإكرام، أي إننا نقدّمُ ونكرّسُ ذاتَنا وكلَّ ما نملِكُ للعذراء الطوباوية، كيما يقبلُ الربُّ بشفاعتها المجدَ ومعرفةَ الجميل الواجبة له من قِبَلِنا. إننا نستعرفُ ذاتَنا بأننا غيرُ أهلٍ وغيرُ قادرين للدُّنُوّ من جلالِه اللامتناهي؛ لذا نلتجئ إلى شفاعة العذراء القديسة.

عِلاوةً على ذلك، فإن هذا الإكرامَ، يفترض تواضُعًا عميقًا، وهو الفضيلة التي يُحبُّها الله فوقَ كلِّ الفضائل، لأنَّ النفسَ التي ترتفع «تُنزِلُ الله، والتي تتواضع تَرفع الله». إنَّ الله - كما يقولُ الرسول يعقوب (٤/٦) «يقاومُ المتكبرين ويمنحُ نِعمَه للمتواضعين».

إذا كنتَ تحتقرُ ذاتَك وتعتبرُ نفسَك غيرَ أهلٍ للظهور أمامه والاقترابِ منه، عندئذ هو سيَنزلُ إليك، وتَطيبُ له الإقامةُ، ليرفعَك نحوه رغمًا عنك؛ ويصيرُ عكسُ ذلك تمامًا، عندما يدنو المَرءُ منه بجَسارة وبلا شفيع، فحينئذ يهربُ منه فلا يَقوى على البُلوغ إليه.

إنَّ الله يُحبُّ حقًّا تواضعَ القلبِ، وهذا الإكرام يَحُثُّ على ذلك، لأنه يعلّمنا أَن لا نقتربَ منه أبدًا بذاتنا، مهما كان الرّبُّ وديعًا ورحيمًا، بل أن نستخدمَ دومًا شفاعةَ العذراء القديسة، سَواءٌ كان للظهور أمامه أَو التَّكلُّمِ معه، أو الدُّنُوِّ منه، أو لتقديم شيءٍ له، وتكريس الذات والاتحاد بِه.

٣- إنَّ هذا الإكرامَ يمنحنا عطفَ مريمَ وحبَّها.

إنَّ العذراءَ الطوباوية هي أمُّ الطِّيبِ والرحمة، فلا تَدَعُ أنْ تَغلبَها أنتَ في الحب والعطاء؛ فعندما ترى أحدًا يُقدّمُ ذاتَه بجملتها لها، لإكرامها وخدمتها، بتجرده عن كلّ ما هو غالٍ ليُزيّنَها، عندئذ هي أيضًا تُعطي له ذاتَها كلّيًّا وبِشَكلٍ لا يوصف، فتجعله يغرَقُ في هُوَّةِ نِعَمِها، وتُجَمِّلُه باستحقاقاتها، وتَسندُه بقدرتها، وتُنيرُه بضيائِها، وتُحرقُه بمحبتها، وتُشرِكُه بفضائلها من تواضع وإيمانٍ وطهارة وغيرِها، فتُصبحَ له كفيلةً مُكمِّلةً له وعزيزتَه نحو يسوع.

وبما أنَّ الشخصَ المكرسَ ذاتَه هو لمريَم بجُملتِهِ، فكذلك مريم هي له بكاملِها، بحَيثُ إنه يمكن القولُ عن هذا الخادم الكامل وابنِ مريم، ما قاله الإنجيلي يوحنا عن ذاته، إنه أخذها إلى خاصَّتِه (يوحنا ١٩/ ٢٧)؛ أي سيَنجُمُ له من هذا - إذا كان هو أمينًا وعديمَ الثقة بذاته واحتقرها وكَرِهَها - أنْ ستكون له مِن جِهة أُخرَى ثقةٌ كبيرة واعتمادٌ عظيم على العذراء القديسة سيدتِه الصالحة. فلا يستندُ بعد، كالسابق، على استعداداتِه ونياته واستحقاقاته وفضائله وأعماله الصالحة. إذْ قد ضحَّى بها ليسوع على يدِ مريم، ولم يبقَ له بعد إلا كَنزٌ واحد فقط، فيه وضَع كلَّ خيراتِه، خارجًا عنه وهو مريم.

هذا ما يجعلُه أن يدنوَ من الرب دونَ خوفٍ ولا وَسواس، وأن يُصلِّيَ إليه بثقة كبيرة، متخذًا شعائرَ العلّامةِ النّاسك التَّقيّ روبيرت، الذي بتلميحه عن غلبة يعقوب للملاك (تك ٣٢/ ٢٤)، يخاطبُ العذراءَ الكليةَ القداسة بهذه العبارة الجميلة: «يا مريم، أميرتي، وأمَّ اللهِ الإنسان، يسوعَ المسيح، المحبولَ بها بلا دنس، أودّ أنْ أُحاربَ مع هذا الإنسان، أَعني الكلمةَ الإلهي، مسلَّحًا لا باستحقاقاتي الخاصة، ولكن باستحقاقاتِكِ».

حقًّا إنَّ المرءَ لَقديرٌ وقويٌّ لدى يسوع المسيح عندما يكون مسلَّحًا باستحقاقات وشفاعةِ أمٍّ كهذه لائقةٍ بالله، التي كما يقول عنها القديس أَغُسطينُس «غلبَتْ بحبِّها الكليِّ القدرة».

تُطهِّر مريمُ أعمالَنا الصالحةَ وتزيِّنُها وتجعلُها مقبولةً لدى ابنِها.

تُطهِّرُها من كلّ تَلوُّثِ المحبة الذاتية والتَّعلقِ بالخليقة، هذا التعلّق الذي يندَسُّ بِشَكلٍ غيرِ محسوس في خيرِ أعمالنا. فحالَما تصيرُ ما بين يديها الطاهرتين، اللَّتَيْن لم تَتدنَّسا ولم تَبقَيا عاطلتَيْن، تُنقِّي كلَّ ما تَلمِسُه، وتَنزع من هديَّتِنا المقدَّمة لها كلَّ ما فيها من دنس وعدم كمالٍ.

إنَّها تُجمِّلها بتزيينها باستحقاقاتها وفضائلها. كَمِثلِ فلاحٍ يَوَدُّ كَسْبَ صداقةِ الملك وعطفِه، فيذهب لدى الملكة ويقدمُ لها تفاحةً هي كلُّ ما يَملِك، لتُهديَها للملك. إنَّ الملكة بقَبولها الهديةَ الحقيرةَ والتافِهَة، تضع التفاحةَ وسطَ صحنٍ كبيرٍ جميلٍ ذهبيٍّ وتُقدّمها هكذا للملك باسم الفلاح. إنَّ التفاحةَ بذاتها لا قيمة لها لتقدَّم للملك، لكنها تُصبحُ هديةً لائقة بجلالِه نَظرًا إلى الصحن الذهبي الموضوعةِ هي فيه، وخاصةً إلى شخصِ الملكةِ التي تقدمها.

إنها تقدم هذه الأعمالَ الصالحةَ ليسوع المسيح، لأنها لا تحتفظُ بشيء لنفسها مما يُهدَى لها، بل تُعيدُ كلَّ شيء بأمانة إلى يسوع. فإذا ما يُعطى شيءٌ لها، فهذا معناه أنّه يُعطَى بِالضّرورة ليسوع، وإذا ما تُمدَح وتُمجَّد، فحالًا تَمدَح وتُمجِّد يسوع. الآن كما في السابق، عندما مدحَتْها القديسة أليصابات، رتَّلت: «تُعظم نفسي الرب» (لوقا ١/ ٤٦) .

عندما يقدّمُ شخصٌ هديّةً ليسوع معتمدًا على لَباقتِه واستعدادِه الخاصّ، يفحصُها يسوع – ومرارًا - بسبب فسادِها الناجم عن محبة الذات، كما رَفضَ في الماضي ذبائحَ اليهود التي كانت مملوءةً من إرادتهم الشخصية؛ ولكن عندما يُقدَّم له شيءٌ بيدَي أمِّه الحبيبة، فإنه لا يقدر على رفضِ شيءٍ لها، لأنه لا ينظر إلى الهدية ذاتِها، ولا إلى مِمَّن هي، لكن فقط إلى من يُقرّبها، لذا لا يَرفضَ أُمَّه مريمَ أبدًا، بل بالعكس، يَقْبلها بكل طيبة خاطر، مهما كانتِ الهدية حقيرةً بذاتها، أو صغيرة، فيَكفيها أَنها مقدَّمة من أُمِّه المحبوبة. هذه كانت مشورةُ القديس بِرنار الكبيرة

التي كان يوصي بها أُولئك الذين يقودُهم نحو الكمال، قائلًا: «عندما تُريد تقديمَ شيءٍ لله، اِهتمَّ بِأنْ تفعلَ ذلك بواسطة مريمَ المبارَكة، الا إذا أردْتَ أن تُرفضَ؛ إنَّ الطبيعة ذاتَها توصي الصغارَ بِعَملِ ذلك لدى تَعامُلاتِهم مع الكبار، كما أَنَّ النعمةَ أيضًا تحمِلُنا على استعمالِ نفسِ الصيغة مع الله صاحبِ السُّمُوِّ اللامتناهي، لا سِيَّما ولنا محاميةٌ هكذا قديرةٌ ولبِقَةٌ، لا تُرَدُّ قَطُّ، تعرف كلَّ الأسرار لاجتذابِ قلبِ الله، ولا ترفُضُ بدورِها أحدًا مهما كان صغيرًا وفقيرًا».

٤ – بهذا الإكرام نعطي لله مجدًا أَعظم

إذا تَمّت مُمارَسةُ هذا التكريم بأمانةٍ، يُصبح واسطةً ساميةً تُعطي لكل أَعمالِنا الصالحة قيمةً للحصول على مجدٍ أعظمَ لله. لا أحدَ تقريبًا يقومُ بأعماله لأجلِ هذه الغاية النبيلة، رَغمَ أنّنا ملتزمون بذلك. والسببُ هو لأننا إمّا لا نعلمُ أينَ هو مجدُ الله الأعظم وإمّا لأننا لا نريد ذلك. أما العذراء الطوباوية التي أودَعْنا إليها قيمة واستحقاقَ كلِّ أعمالِنا الصالحة، فإنها تعلَمُ عِلمًا كاملًا أين هو مجدُ الله الأعظم، ولا تفعَلُ شيئًا إلا لتحقيقِه. لذا فعَبدُها الحقيقي يُمكنه القَولُ بجَسارة بأن قيمةَ كلِّ أعمالِه وأقوالِه هي مستعمَلةٌ لمجدِ الله الأعظم، إلا اللهُمَّ إذا تراجع عن قراره بِشَكلٍ صريح. فهل من تعزية أعظمَ للإنسان المحِبِّ لله محبةً حقيقة، المهتمِّ بمجدِ الله ومصالِحِه أكثرَ مِمّا لنفسه؟

٥ – إنَّ هذا التكريم يؤدي إلى الاتحاد مع الرب، بِشَكلٍ أسهل، لأنه طريقٌ قصيرٌوكاملٌ وآمن.

أ: فهو طريقٌ سهلٌ سلَكَهُ يسوع المسيح في مجيئه إلينا، ولا صعوبة للعودة إليه به. لا رَيبَ أنه يمكنُ الاتّحادُ مع الله بطُرقٍ أخرى، إلَّا أنها ستكون أصعبَ بتَحمُّلِ صُلبانٍ أكبرَ، وميتاتٍ روحية وصعوباتٍ جَمَّة لا نَقوى عليها إلا بصعوبة. إذْ علينا أن نجتاز بلَيالٍ مظلمة وممارساتٍ روحية غريبة وتسلّقِ جبالٍ عالية وتحمّلِ أشواكٍ مرهَفة والسير في صحاري مخيفة. بينما بطريقِ مريمَ يمكن الاجتيازُ بحلاوةٍ لذيذة وأمانٍ أعظم. لا شكَّ أنه ستكون هناك صراعاتٌ قوية وأزماتٌ حادّةٌ يجبُ السيطرةُ عليها، فستكون هذه الأمُّ الرَّؤومُ بجانب خُدامِها الأمناءِ لتُنيرَ ظلماتِهم وتشجِّعَهم في مخاوفِهم وتشدّدهم في صراعهم، بحَيثُ يوصِلُنا الطريقُ المريميُّ إلى يسوع كأننا نسيرُ بين الورد ملتذين بالعسل، عكسَ الطُّرق الأخرى. وقد اختبرَتْ نُخبةٌ صغيرة من القديسين ذلك من أمثال إفرامَ ويوحنا الدِّمَشقي وبِرنار وبِرنَردينُس وبوناڤِنتورا وفرنسيس دي سالِس

وغيرِهم، إذْ أنَّ الروحَ القدس أنارَ عقولَهم لمعرفة ذلك، عكسَ غالبيةِ القديسين الذين بلغوا إلى يسوع في طرقٍ خطرةٍ وسْط صعوباتٍ مخيفة.

قد يُستغرَبُ كَونُ بعضِ خُدّامِ مريمَ الأُمناء، يُلاقون صلبانًا كثيرة، ومُناقَضاتٍ واضطهاداتٍ وافتراءاتٍ، ويسيرون وسطَ ظلماتٍ روحية باطنية بلا عَزاء. فأقول إنَّ الصلبانَ هي هدايا السماء، فلا عَجَبَ أن يَحصلوا عليها. ولكنْ هنا أيضًا أَوَدُّ القولَ بأنَّ خدامَ مريم يتحملون هذه الصلبانَ بسهولةٍ أكثر وباستحقاق ومجد. وما يوقِفُ آخَرين ألفَ مرةٍ أو يجعلُهم يسقطون، لا يوقفهم بتاتًا، لا بل يجعلهم يتقدمون، وذلك لأنَّ هذه الأمَّ الصالحة، الممتلئة نعمةً وحلاوةً من الروحِ القدس، تقطَعُ هذه الصلبانَ وتضعُها في سكر طيبها الوالدي، فيبتلعونها بفرح كأنَّها جَوزٌ [عين جمل] في السكر، رغمَ مرارتِها الطبيعية.

أَظنُّ أَنَّ العابدَ الذي يَوَدُّ العيشَ بتَقوى نحو يسوع، والذي بالنتيجة يتحمل الاضطهادَ دومًا، لن يحملَ صلبانَه الكثيرة والكبيرة بفرح، ما لم يكن ذا إكرامٍ فائقٍ للأمِّ العذراء التي تُحَلّيها، كما لا يستطيع أحدٌ دون قَسرٍ أكلَ الجَوزِ الأخضرِ المُرّ، ما لم يكن مَغموسًا في السكر.

ب: إنه طريقٌ قصير، سَواءٌ لأنه لا يَتيهُ، وسَواءٌ لأنه يمشي فيه بفرح، فلا يشعر بتعب، فيسيرُ بسرعةٍ أكثر. مَن يُكرمُ العذراءَ مريم، يتقدمُ روحيًّا في وقتٍ قصير، أكثرَ من الشخص المعتمِد على ذاتِه وإرادته في سنواتٍ كاملة. إنَّ الطائعَ لمريم والخاضع لها، يُرتِّلُ الانتصاراتِ على أعدائِه، الذين سيُحاولون مضايقتَه في سَيرِهِ ليَسقطَ أو يَتقهقرَ، إلَّا أنه سيخطو كجبّارٍ نحو يسوعَ المسيح، في نفس الطريق التي سلكها هو في وقتٍ قصير. هل تفكرُ لماذَا عاشَ يسوع على الأرض قليلًا وقضى تلك الفترةَ تقريبًا كلَّها في الخضوع والطاعة لأمِّه؟ إنه في أمَدٍ قصير، عاشَ طويلًا، وأكثرَ من آدم الذي جاء يسوع لِيُكَفِّرَ عن خسارته والذي رَغمَ عمرِه الطويل الذي عاشَه، فإنَّ يسوعَ بخضوعه واتِّحادِه بِأُمه القديسة، عاشَ أكثر منه. يقولُ الروح القدس: من يحترمُ أُمَّه يشبهُ رجلًا يَكنِزُ له كنوزًا، فمن يُكرّمُ مريَم أُمَّه بخضوعه لها، وطاعتِه لها في كلّ شيء، سيُصبحُ غنيًا، كمن يَكْنِزُ له كنوزًا (سيراخ ٣/٥) .

إنَّ حُضْنَ مريمَ ولَدَ وعانَق الإنسانَ الكامل الذي لم يستطعِ الكونُ فَهمَه ولا احتواءَه. ففي هذا الحضن، يُصبحُ الشبابُ شيوخًا ويُشِعّون نورًا وقداسة وخبرة وحكمةً، فيَصِلون في فترةٍ وجيزة إلى عمر يسوعَ المسيح الكامل.

ج: إنه طريقٌ كاملٌ، لأن مريمَ المباركة هي أكملُ وأَطهرُ الخلائقِ، ولأنَّ يسوعَ في سَفَرِهِ العجيبِ والكبيرِ نحونا، جاءنا بواسطتها في هذا الطريق. إنَّ المتسامي الذي لا يمكن فَهمُه ولا البلوغُ إليه، ذاك الذي هو، قد أَحبَّ المجيءَ إلينا، نحن دودةَ الأرض الصغيرة والحقيرة. إنَّ العَليّ نزلَ إلينا كاملًا وإلهيًّا، بواسطة الصغيرة، دون فقدانِ شيءٍ من عظمته، وعلينا أيضًا بواسطة مريم أن نَدَعَها تحتوينا وتقودنا، بِشَكلٍ كامل وبلا تَحَفُّظ. إن الذي لا يمكن فَهمُه، اقترب واتّحد بِقُدرة وبِشَكلٍ كامل وشخصيًّا بناسوتنا، بواسطة مريم دون أن يخسر شيئًا من جلالِه. وبواسطة مريمَ أيضًا، علينا أن نقتربَ من الله ونتّحدَ بجلاله كاملًا وبِقُوّة دون خوفٍ من أن نُرفَضَ. وأخيرًا ذاك الذي هو، قد أحبَّ المجيء نحو مَن ليس شيئًا، ليجعلَه إلهًا أيْ لِيجعلَه مَن هو، وفعلَ ذلك بِشَكلٍ كامل، بإعطاءِ ذاتِه وخضوعِه كلِّيًّا لمريمَ العذراء الشابّة، دون أن يتخلَّى في الزمن عن مَن هو منذ الأزل. وبنفس الترتيب نحنُ الذين لسنا شيئًا، نقدر بواسطة مريم، أن نُصبحَ شبيهين بالله، بالنعمة والمجد، بإعطاء ذواتِنا لها، بِشَكلٍ كاملٍ وبجُملتِنا، دون خوفِ الخَطأ، رغم أنّنا لسنا شيئًا في ذاتنا، ولكن نحنُ كلُّ شيء فيها.

إذا كان يُوجدُ طريقٌ جديدٌ للذهاب إلى يسوعَ المسيح، مُعبَّدٌ بكل استحقاقاتِ الطوباويين، ومزيّنٌ بكل فضائلهم البطولية، ومنوَّرٌ بكل أنوارِ وسحرِ الملائكة، مع كلّ الملائكة والقديسين، ليقودوا ويدافعوا ويثبّتوا السائرين فيه، فإنني أَتجاسرُ وأقولُ الحقّ، بأنني أُفضِّلُ على هذا طريقَ مريم المحبول بها بلا دنس، الطريقَ الكامل والنظيف والخالي من كلّ خطيئة، وبدون أيِّ ظِلٍّ أو ظلمات. وعندما يجيء يسوعي المحبوب في مجدِه إلى الأرض، للمرة الثانية، ليملِكَ عليها، فإنه لن يختار في سفره طريقًا آخر، عدا طريقَ مريمِ المباركة، التي جاء بواسطتِها في المرة الأولى، بِشَكلٍ أكيد وكامل. إنَّ الفرق بين المجيئَيْن هو أنه في الأول كان سِرّيًّا وخَفيًّا، وفي الثاني سيكون مجيدًا وعجيبًا، وكِلاهُما كاملان، لأنهما تَمَّا بواسطة مريم. إنهُ لَسِرٌّ لا يُفهم للأسف ولْيَصمُتْ هنا كلُّ لسان.

د: إنه طريقٌ أمين

(أ): إنَّ الممارسةَ التي أُعلّمُها ليست جديدةً. يقولُ اللاهوتي بودون الذي كَتبَ عنها كتابًا، إنّه لا يعلم بالضَّبط متى ابتدأت. مع ذلك فإنَّ آثارَها موجودة في الكنيسة، منذ أكثر من سَبعِمِئة

سنة. وكان القديسُ أوديلون، رئيسُ دير كْلوني، الذي عاش حول سنة ١٠٤٠، من الأوائل الذين مارَسوها في فرنسا، كما هو مدوَّنٌ في سيرةِ حياته.

ويَذكرُ الكردينال بطرس دَميانُس (مَلَفان الكنيسة) عن أخيه الطوباوي مارينُس، بأنه في عام ١٠١٦ خصَّص ذاتَه عبدًا للعذراء المبارَكة بحضور مرشدِه. كما يَذكُر سيزار بولَندو عن فارس اسمُه ڤالتِر دي بيرباك، من أنسِباء دوق لوڤان أنه نحو سنة ١٣٠٠ كرّس نفسَه أيضًا للعذراء القديسة. فمارسَ هذا الإكرام كثيرون بِشَكلٍ خاصّ، حتى أصبح معروفًا في القرن السابع عشر.

نَشَرَ الأبُ سيمون روخاس - واعظُ الملكِ فيليپ الثالث - بِشَكلٍ شعبيّ هذه الممارسةَ في كلّ أسپانيا وألمانيا، وحصل بإلحاح فيليپ الثالث، من البابا غُرِغوريُس الخامس عشر، غُفراناتٍ عديدةً لمن يُمارسُها. واجتهدَ الأبُ دي لوس ريوس، مع صديقه الحميم الأب روخاس، في نشر هذه الممارسة بكتاباته وأقوالِه في أسپانيا وألمانيا، وألَّف كتابًا ضخمًا، بعنوان «السلسلة المريمية» تكلَّم فيه - عن معرفَةٍ - عن قِدَمٍ وسموٍّ ورُسوخٍ في هذه الممارسة بأُسلوبٍ تَقَويّ.

ووطَّد الرُّهبانُ الثِّياتيّون، هذه الممارسة في الجيل الماضي، في إيطاليا وصِقَلِّيا وساڤويا؛ كما نشر الأب سْتانيسلاو فينيسيو اليسوعي هذه الممارسة بِشَكلٍ فريد في بولندا. ويَذكُر الأبُ دي لوس ريوس في المؤلَّف المذكور، أسماء الأمراءِ والأميراتِ والدوقات والكرادلة الذين مارسوا هذا التكريمَ من مختلَفِ الممالك.

ومَدَحها الأبُ كُرنيليو ڤان دِنْ سْتين، المعروفُ بتَقواه وعِلمِه الزاخر، المُفَوَّض من قِبَلِ الأساقفة واللاهوتيين بفحص هذه الممارسة، فأصدرَ بشأنها مدحًا لائقًا بتقواه. وقدّمَ الآباءُ اليسوعيون - الغَيّورون دائمًا عن خدمة العذراء الكليةِ القداسة -، باسمِ أخوياتِ مدينةِ كولون، بحثًا صغيرًا عن هذه الممارسة، إلى فِرديناند دوق باڤاريا، ليسألَ رئيسَ أساقفةِ كولون، لأجل طَبعِه، ولِتحريضِ الكهنة والرهبان في الأبرشية على نشر هذه الممارسةِ الراسخة قَدْرَ طاقتِهم.

وكان الكردينال دي بيرول (يُذكَر للتَّبارك في كلّ فرنسا) بين أَكبر الغيورين على نشر هذه الممارسةِ في بلدِه، رغمَ كلّ الافتراءات والاضطهادات التي شنَّها ضدَّه المنتقدون واللادينيون، متَّهمين إياه بأمورٍ جديدةٍ وشَعوَذةٍ، ونشروا ضدَّه كتابًا محشوًّا افتراءاتٍ مستخدمين - أو بالأحرى استخدم الشيطان بواسطتهم - ألفَ حيلةٍ لمنعِه من نشر هذه الممارسة في فرنسا. إلَّا

أن هذا الرجلَ العظيمَ والقديسَ، لم يُبالِ بذلك محتملًا إياها بصبرٍ جميلٍ، وردَّ على اعتراضاتِهم الملفَّقة في كتابهم، بتأليفٍ صغير مُفَنِّدًا ادّعاءاتِهم بقوة، مُبيِّنًا أنَّ هذه الممارسة مبنيةٌ على مثال يسوع وعلى الواجبات التي علينا نحوَه، وعلى النذور التي أبرزناها في العماد؛ وخاصّةً بهذا البرهانِ الأخيرِ سَدَّ أفواهَ خُصومِه، وأظهرَ أنَّ هذا التكريسَ ما هو إلا تجديدٌ كاملٌ لمواعيدِ ونذورِ المعمودية.

ويُمكنُ مطالعةُ أسماءِ الباباوات العديدين الذين أيَّدوا هذا الإكرامَ (في كتاب السيد بودون)، وكذلك أسماءِ لاهوتيين كثيرين فحصوه، والاضطهادات التي لاقوها وانتصروا عليها، وأسماءِ آلاف الأشخاصِ الذين مارسوه، دون أن يَحرِمَهم أيُّ بابا، فلا يمكن أن يصيرَ كلُّ ذلك دونَ هدمِ المسيحية.

يَثبُتُ بهذا أن هذه الممارسة ليست جديدة بَتاتًا، وإنْ كانت غيرَ عامّةٍ، لكَونِها ثمينةً جدًا فلا يتذوقها الجميع.

(ب): إنَّ هذا التكريمَ هو طريقٌ آمِنٌ يُبَلِّغنا إلى يسوع المسيح وإلى الآب الأزلي بِشَكلٍ أكيد. لا يَظنَّ الروحانيون خطأً أنَّ مريم تَمنع وصولَهم إلى الاتحاد الإلهي. فهل يُعقَلُ أنَّ تلكَ التي وَجَدت النعمةَ أمامَ الله لكلِّ العالم، تُصبِحُ مانعًا لنفسٍ تتَّحدُ بالله؟ هل يُمكن للتي كانت ممتلئةً نعمةً وفائضةً بها ومتحدةً كلّيًّا به حتى تجسدَ فيها، أن تُعيقَ أحدًا من الاتحادِ به تمامًا؟ إنَّ رؤيةَ بعضِ الخلائقِ – وإنْ كان لها قُدسيّة - قد يُؤخِّرُ أحيانًا الاتحادَ بِالله، ولكن ليسَ مريم؛ فإنَّ أحدَ الأسباب التي من أجلها يبلغُ أُناسٌ قليلون إلى ملءِ قامةِ المسيح هو لأنَّ مريمَ التي هي أُمُّ الابنِ ومَقَرُّ الروح، هي غيرُ كاملةٍ في قلوبِهم. من يَوَدُّ اقتناءَ ثمرٍ ناضج جيّدٍ ولذيذٍ، عليه أن يَغرِسَ الشجرةَ التي تُنبِتُه. ومن يرغَبُ امتلاكَ ثمرةِ الحياة التي هي يسوع المسيح، عليه نَصْبُ مريمَ شجرةِ الحياة عنده، ومن يريدُ الحصولَ على فاعليّةِ الروحِ القدس، يجب أن تكونَ له مريمُ الأمينةُ المباركةُ التي تُعطي لعَمَلِه الخصوبةَ والثمر.

إذًا، كلّما نظرتم إلى مريَم أكثر، سَواءٌ في صلواتكم أو انخطافاتِكم أو أعمالكم أو عذاباتكم – وإنْ لم تَكُن نظرةً واضحةً متميزة لكنْ أقَلُّه بنظرة عامّة أو غيرِ دقيقة -، فَستجدون بِشَكلٍ أكمل يسوعَ الذي هو دومًا مع مريم، عظيمٌ وقديرٌ وغيرُ المُدرَك، أكثرَ حتى مِمّا في السماء أو في أيةِ خليقةٍ أُخرى في الكَون. وهكذا بالأحرى، فإنَّ مريمَ التي تغيّرت كلّيًّا في الله لا تُصبِحُ عائقًا للكاملين من البلوغ إلى الاتحاد بِه، لأنه لم يَصِرْ قَطُّ حتى الآن، ولن تكون أبدًا خليقةٌ بوُسعها مساعدَتُهُم بأكثر فاعِليّة في هذا العمل العظيم، سَواءٌ بواسطة النِّعم التي تمنحُها لهم لهذه

الغاية - لأنه لا يوجد أحدٌ مملوءٌ من فكرة الله إلا بواسطتها كما يقول القديس جِرمانُس -، وسَواء بصيانتها إيّاهُم من خِداعاتِ الروح اللعين وغِشِّها.

فحيثُ مريم، يَستحيل وجودُ روحٍ خبيثةٍ. ومن العلاماتِ الأكيدة لمعرفة ما إذا كان الروحُ الصالح هو الذي يديرُ المَرءَ، هي إكرامُه الكبير لمريم، وافتكارُه فيها والتكلمُ عنها مِرارًا، كما يقولُ القديس جِرمانُس، والذي يضيف: كما أنَّ النَفَسَ هو علامةُ الحياة الأكيدة للإنسان، كذلك الافتكارُ المتواترُ والدعاءُ الحُبِّيُّ إلى مريمَ هو إشارةٌ واضحةٌ على حياة المرءِ روحيًا.

وكما أنَّ مريمَ وحدَها، كما تقولُ الكنيسةُ والروحُ القدس مرشِدُها، أبادت كلَّ الهرطقات مهما تذمَّرَ الناقدون، فإنَّ مَنْ يكَرِّمُ مريمَ حقًّا وبأمانة، لن يسقطَ في الهرطقة، أو أقلُّه في الخداع الصوري؛ قد يَتيهُ مادّيًّا، ويظنُّ الكَذِبَ حقًّا، والروحَ الخبيثةَ صالحةً، ولكن يَحدثُ هذا بصعوبة أكثر مِمّا لدى غيرِ المكرِّمين لها؛ وعندما سيعرفُ غلطَه، فعاجلًا أَمْ آجلًا لن يعاندَ البَتّة، أو يُصدِّقَ أو يعتنقَ ما كان يظنُّه أَنه الحقيقة.

إذًا كلُّ من يرغبُ التقدُّمَ في طريقِ الكمالِ دونَ خوفِ الضلال، والبلوغَ إلى يسوع المسيح بِشَكلٍ أكيدٍ وكامل، لِيعتنقْ «بقلبٍ رحبٍ ونفسٍ منشرحة» (٢ مكاب ٣/١) هذه الممارسة تُجاهَ العذراء الطوباوية، التي ربما لم يعرفْها بعد، ولِيدخلْ في هذا السبيل الذي كان مجهولًا منه، والذي أريه إيّاه (١ كور ٣/١٢). إنه الطريقُ المسلوكُ من يسوع المسيح الكلمةِ المتجسد، رأسِنا الوحيد، لذا فمَن يسيرُ فيه لن يَتيه.

إنهُ طريقٌ سهلٌ، بسبب ملءِ النعمة ومَسحةِ الروح القدس، لا يتعبُ المرءُ فيه أَبدًا ولا يتقهقرُ قَطُّ، إذا سار فيه. إنه طريقٌ قصير، يوصلُنا في زمن قصير إلى المسيح يسوع. هو طريقٌ كاملٌ لا وَحْلَ فيه ولا غبارَ ولا رائحةَ خطيئة، وهو أمينٌ ليُبَلِّغَنا إلى يسوع وإلى الحياة الأبدية بِشَكلٍ مستقيم وأكيد، ودون انحراف. لندخلْ فيه ولنَسِرْ ليلَ نهار حتى نبلغَ قيامةَ المسيح (أفسس ١٣/٤).

٦ – هذا التكريم يمنحُ حريةً باطنيةً كبيرة

وهي حريةُ أبناءِ الله (رومية ٢١/٨) للذين يمارسونه بأمانة، لأنه يجعلُ المرءَ عبدًا ليسوعَ الربِّ الصالح الذي يجازي عبدَه بنَزْعِهِ عنه كلَّ وَسواسٍ وخوفٍ يضايقانه وَبِمَنْحِهِ أُلفةً مقدسةً مع الله، معتبرًا إياه أبًا، وواهبًا له حُبًّا حقيقيًّا بَنويًّا ورقيقًا.

ولا أَودُّ إثباتَ ذلك ببراهينَ عقلية، بل أكتفي بسرد حادثٍ قرأتُه في ترجمةِ الأُمّ الراهبة أَغنيسة ليسوع المتوفية بعُرفِ القداسة عام ١٦٣٤. لقد كانت هذه الراهبة تتعذبُ كثيرًا، وسمعتْ صوتًا يقول لها: إذا كنتِ ترغبين التخلُّصَ من عذاباتك، صيري عبدةً ليسوع وأُمِّه مريم. فقَبِلَتْ ذلك فورًا، وأعلنتْ ذاتَها هكذا، وكعلامةٍ لذلك حملتْ على حَقْويها سلسلةً حديديةً حتّى مماتها (كان العبدُ كثيرًا ما يُشَدُّ بالسلاسل الحديدية)، فشُفيتْ من آلامها وشعَرَتْ براحةٍ وسلامٍ يغمرانها. وعلّمتْ هذه الممارسةَ للأب أولْييه مؤسّس إكليريكية سان سولبيس ولِغيرِه من الكهنة.

٧ – هذا التكريم يمنح خيراتٍ جزيلةً للقريب

بتسليم المرءِ أَثمنَ شيءٍ له - وهو قيمةُ أَعمالِه الصالحة التكفيرية - إلى مريمَ لتُوجِّهَها حسبَ رغبتِها الوالديّة، سَواءٌ لارتداد الخطأةِ أَمْ لِتخليصِ الأنفسِ المطهرية، يُظهرُ الإنسانُ ذاتَه أَنه تلميذٌ كاملٌ لمعلمِه يسوع، ويحب قريبَه، عاملًا على خلاصِه، سَواءٌ كخاطئ على الأرض أو متعذبٍ في المطهر. ولمعرفةِ سُمُوّ ذلك، يكفي القولُ بأنه عملٌ أعظم من خلق السماء والأرض، حسَبَ القديس أَغُسطينُس، لأنه يُعطي للإنسانِ خيرَ حصولِه على الله. فلو أُعطيَ للإنسان أن يخلِّص ولو شخصًا واحدًا فقط من المطهر، أو إرجاع خاطئ واحد، أَفَليس ذلك شيئًا عظيمًا لكل إنسان أن يمارسَ هذا النوعَ من الإكرام؟

مع هذا نلاحظُ أنَّ أعمالَنا الصالحةَ التي تمرُّ بِيَدَيْ مريم، تنالُ نقاءً أَكثر، ومن ثَمَّ زيادةً في الثواب والقيمةِ الوفائية والاستحقاقِ الطَّلبي، فتصيرُ أقدرَ على تخفيفِ العذاباتِ المطهرية وهِداية الخطأة مما تكون بذاتها ولم تمرَّ بيدَيْ مريم. وقد يكونُ عند وَفاةِ شخصٍ أمين لهذه الممارسة، أنه خلَّصَ نفوسًا كثيرة من المطهر وأرجعَ خطأةً عديدين دون قيامِه بأعمالٍ خارِقةِ لِلعادة، إلَّا ما تطلبه حالتُه الاعتياديّة، فيا لَعِظَمِ سعادتِه يومَ الدين.

٨ – إنَّ ممارسةَ هذا التكريم هي واسطةٌ عجيبة لأجل الثبات

ما هو سببٌ عدم ثبات أغلبِ ارتداداتِ الخطأة؟ ولِمَ يقعون بسهولةٍ في الخطيئة؟ لماذا أكثرُ الأبرارِ، بدلَ أن يتقدموا في الفضيلة ويكتسبوا نِعمًا جديدة، يفقدون مرارًا القليلَ الذي لهم من النعمة؟ إنَّ هذه التعاسةَ مصدرُها اعتمادُ الإنسان على ذاته، واستنادُه على قواه الخاصة، ظانًّا بأنهُ قادرٌ على المحافظة على كنزِ نِعمِه وفضائلِه واستحقاقاته.

بواسطةِ هذه الممارسة، يؤَمِّن صاحبُها لدى الأُمّ القديسة الأمينة كلَّ ما له، معتبرًا إيّاها مستودَعًا عامًا لكل خيراتِه الطبيعية والروحية، واثقًا بِأمانتها مستنِدًا على قدرتِها، ومعتمِدًا على رحمتها ومحبتِها كي تحفظَ وتُنمّيَ فضائلَه واستحقاقاتِه، رغم الشيطانِ والعالمِ والجسدِ الذين يحاولون جُهدَهم لانتزاعِها منه.

إنَّهُ يقول لها، كما يقولُ الطفلُ الصالح لأمِّه والعبدُ الأمينُ لِسيّدتِه: «حافَظْتُ على الوديعة» (١ طيم ٦/٢٠)؛ يا أُمّاه الصالحة، ويا سيدتي، إني أُقِرُّ بقَبولي حتى الآن النِّعمَ من الله بشفاعتك، أكثرَ مما أستحق، وإنَّ اختباري البائس يُعلمُني أنني أحمل كَنزي في إناءٍ سريعِ العَطب، وأنني ضعيفٌ جدًّا وحقيرٌ كثيرًا حتى أستطيعَ المحافظة عليها بذاتي، لأني «صبيٌّ حقير» (مز١١٩(١١٨)/١٤١)، لذا أرجو قبولَ كلّ ما لي كوديعةٍ، تحافظين عليها بأمانتك وقدرتِك؛ فإذا أنتِ حَرستِني لن أفقدَ شيئًا، وإذا سَنَدتِني لن أسقطَ أبدًا، وإذا حَمَيتِني فسأكون في مأمنٍ من أعدائي.

هذا ما يقولُه القديسُ بِرنار بكلمات صريحةٍ مُشوِّقًا إيّانا إلى هذه الممارسةِ، فيكتبُ: «عندما تَسنِدُك (مريم) لا تسقط أبدًا، وعندما تَحرُسُك لا تخافُ قَطُّ، وعندما تقودُك لا تتعب البَتّة، وعندما تهتمُّ بك ستصِلُ إلى مَرفإِ السلامة». ويُكرِّرُ القديسُ بوناڤِنتورا ذلك بكلماتٍ أقوى قائلًا: «إنَّ العذراءَ القديسةَ ليست فقط من عِداد القديسين، لكنها هي التي تحفظُ مِلئَهم من النُّقصان، وفضائلَهم من الخُسران، واستحقاقاتِهم من الفُقدان، ونعمَهم من الحِرمان، والشياطين من إيذائهم، وتمنعُ أخيرًا الربَّ من معاقبتهم عندَ الخطأ».

إنَّ العذراءَ الكُلِّيَّةَ القداسة هي البتولُ الأمينةُ نحو الله، التي عوّضتْ عن الخِسارة الناجمة من حواء غيرِ الأَمينة، فتطلب من الله، الثباتَ لأولئك الذين يتعلقون بها. لذا يُشَبِّهها أحدُ القديسين بالمِرساة الراسخةِ التي تُخلّصُ من الغرق في بحرِ هذا العالمِ الخِضَمّ، الكثيرين المتشبِّثين بها. ويقولُ يوحنا الدِّمَشقي بِدَورِهِ: «إننا نُعلّق النفوس برجائِك، كما بِمِرساةٍ وطيدة». إنَّ القديسين الذين خَلُصوا تعلقوا بها، وعلَّقوا الآخَرين ليَثبُتوا على الفضيلة. فطوبى أَلفَ مرَّةٍ لأولئك المسيحيين الذين يتشبَّثون بها بأمانة كاملة كما بِمِرساة ثابتة، فإنَّ أعاصيرَ هذا العالم لا تَقوى على إغراقهم، ولا على حرمانهم من الكنوز السماوية. طوبى لأولئك الذين يدخلون إليها كما إلى فُلكِ نوح. إنَّ مياهَ طوفان الخطيئة، التي تُغرِقُ الكثيرين في العالم، لا تَضُرُّهم، لأنَّ أولئك الذين يشتغلون لخلاصهم لا يُخطِئون. طوبى لأبناءِ حواء التعيسة غيرِ الأُمَناء، الذين يتشبثون بالأُمّ والبتول الأمينة «التي تحبُ دومًا الذين يُحبونها» (أمثال ١٧/٨) لا فقط بمحبة عاطفية،

ولكن بمحبة فعّالة أيضًا تمنعُهم من السقوط في الطريق ومن فقدان نعمةِ ابنِها، إذْ يَمنحُهم فيضَ النعم.

إنَّ هذه الأمَّ الصالحةَ تَقبل دومًا بحب كلَّ ما يُقدَّمُ لها كوديعة، وعندما تَقبلُها تحافظُ عليها من باب العدل؛ هي ملتزمةٌ بعقدِ الأمانة، كمثل شخصٍ أَودعتَ عنده ألفَ ليرة، فهو ملتزمٌ بالمحافظة عليها، بحيث إنه إذا فُقِدَتْ بسبب إهمالِه، يكونُ هو المسؤولُ عنها عدلًا. إنَّ مريمَ الأَمينةَ لا تَدَعُ قَطُّ أن يُفقَد ما يُودَعُ عندها، عن إهمال. فأن تَزولَ السماءُ والأرض أحرى من أن تُصبِحَ مُهملةً غيرَ أمينةٍ نحو المعتمِدين عليها.

يا أبناءَ مريمَ المساكين، إنَّ ضُعفَكم لَشديدٌ، وعدمَ ثباتِكم لَكبيرٌ، وباطِنَكم فاسدٌ. إنكم أبناءُ آدم وحواءَ، ألا تَعَزَّوا وافرحوا، فإني أكشِفُ لكم سرًّا غيرَ معروفٍ تقريبًا من الجميع، حتى أيضًا من الأتقياء. لا تضعوا ذهبَكم وفضتكم في صناديقِكم التي كسرَتْها الروحُ الخبيثة وسرقَتْها، إنها صغيرةٌ وضعيفةٌ وقديمةٌ، لا تصلُحُ لاحتواءِ كَنزٍ كذا ثمينٍ وكبيرٍ. لا تضعوا الماءَ الرائقَ النَّقيَّ في آنيةٍ ملوَّثةٍ بالخطيئة، وإذا لم يَعُدْ فيها خطيئةٌ الآن، فإنَّ رائحتَها لا زالت بَعدُ فيها، فسيكونُ الماءُ ملوَّثًا، ولا تضعوا خمرَكم الممتازَ في براميلَ كانت مملوءةً خمرًا فاسدًا، فإنها ستُفسِدُ هذا الخمرَ أيضًا، فحَذارِ من ذلك.

رغمَ أنّكِ تفهمينَني أيتها النفوسُ المختارة، فإنني سأتكلمُ بصراحة أكثر وأَقول: لا تضعوا ذهبَ محبّتِكم وفِضّةَ طهارتِكم ومياه نِعَمِكم السماوية وخمرَ استحقاقاتِكم وفضائِلَكم في كيسٍ مثقوب، وإلا فسوف يَسلِبُه اللصوص، أعني الشياطين الذين يُفتشون عنكم ليلَ نهار ويتجسّسون، منتظرين الفرصةَ السانحة ليَقوموا بذلك. ستُفسِدونَ برائحتكم الكريهة الناجمة عن محبتكم الذاتية وعن اعتمادِكم على نفسكم، كلَّ ما يُعطيكم إياه الله مما هو طاهر.

أَلا ضَعوا واسكبوا في أحشاء مريمَ وقلبِها كلَّ كنوزِكم ونِعمِكم وفضائِلِكم، فإنه إناءُ الروح، إناءٌ مُكرَّمٌ، إناءُ العبادةِ الجليلةِ، منذ ما الله تعالى أغلق ذاتَه داخلَه بكل كمالاتِه، فأصبحَ روحانيًّا بجُملته، ومَسكَنًا روحيًّا للنفوس الأكثر روحانية؛ فقد أصبح مكرَّمًا وعرشَ شرفٍ لأكبر أمراءِ الأبدية؛ وصارَ إناءَ العبادة الجليل والمسكَنَ الأكثر حلاوةً ونعمةً وفضيلةً، وأمسى أخيرًا غنيًّا كبيتٍ من ذهب، وقويًّا كبُرجِ داود، ونقيًّا مثلَ برجٍ عاجيّ.

آهِ، كم هو سعيدٌ الإنسانُ الذي وَهَب كلَّ ما له لمريمَ ويثِقُ ويَفقدُ كلَّ شيء في مريم. إنه بجُملته لها وهي كلُّها له، ويُمكنه القولُ بجَسارة مع داود: «هذه صارت لي» (مز ١١٩(١١٨)/٥٦)، أو مع التلميذِ الحبيب: «أَخذْتُها إلى خاصَّتي» (يوحنا ٢٧/١٩) أو مع يسوع: «كلُّ شيء لي هو لك، وكلُّ ما هو لك، هو لي» (يوحنا ١٠/١٧).

إذا قَرأَ ناقدٌ هذا وخالَ له أنني أُبالغُ وأتكلّمُ عن ممارسةٍ مبالَغٍ فيها، فيا لَلأسف، لأنه لا يفهمُني، سَواءٌ لأنهُ جَسَدانيّ لا يَتذوَّقُ الأمورَ الروحية البَتَّة، وسَواء لأنه من العالم الذي لا يقدرُ أن يقبلَ الروحَ القدس، وسواء أيضًا لأنه متكبّرٌ ومنتقِدٌ، فيُحرِّمُ ويحتقرُ كلَّ ما لا يَفهمُه؛ إلّا أنَّ الناسَ المولودين لا من دمٍ ولا من مشيئةِ لحمٍ، ولا من إرادة إنسان (يوحنا ١٣/١) بل هُم من الله ومن مريمَ، فهُم يفهموني ويتذوَّقونني.

ومع ذلك أقول إنَّ مريمَ المباركةَ هي أفضلُ وأسخى الخلائقِ، ولا تَدَع نَفسَها تُغلبُ قَطُّ في المحبة والكرم، وبدلَ بيضة، يقول شخصٌ قديس، تُعطي ثورًا، أي بدلَ شيءٍ زهيدٍ يُقدَّمُ لها، تَمنحُ كثيرًا مما أخذَتْه من الله، وبالنتيجة إذا ما قدَّمَت نفسٌ ما ذاتَها لها دون تَحفُّظ، فهي أيضًا بِدَورها تُعطي ذاتَها لها دونَ تَحفُّظ. إذا ما وضعَ الإنسانُ كلَّ ثقتِه فيها دونَ كبرياء، ساعيًا لتحصيل الفضائل وقَلْعِ الرذائلِ. لِيَقلْ إذًا خُدّامُ مريمَ الأمناء، بجَسارة مع القديس يوحنا الدمشقي: «إذا كان لي ثقةٌ فيكِ يا أمَّ الله فإني سأَخلُص، وإذا كانت حمايتُك لي فلا أهابُ شيئًا، وبعونِك سأحاربُ وأَهزِمُ أعدائي، لأنَّ إكرامَك هو سلاحُ الخلاصِ الذي يُعطيه الله لمَن يُريدُ خلاصَهم».

وجوه كتابية عن التكريم الكامل:

رِفقة ويعقوب

يُعطينا الروحُ القدس في الكتاب المقدس (تك ٢٧/١-٤٤) رمزًا خَلَّابًا عن هذه الحقائقِ التي وضعْتُها عن العذراء مريمَ الكُلِّيّةِ القداسة وعن أبنائِها وخدامِها، في قصةِ يعقوب الذي نالَ بركةَ أبيه إسحق بِهِمَّةِ أمِّهِ رفقة وفضلِها؛ وها هي.

أ: قصةُ يعقوب

بعدَ أن باعَ عيسو حقَّ بُكوريَّتِه ليعقوب، أَكَّدَتْ رِفقة، أُمُّ الأخوين - تلك التي كانت تُحب يعقوب بِحُنُوٍّ- فائدةَ ذلك له، بعدَ عِدّةِ سنوات، بعملية مُقدسةٍ غامضة. لمَّا شعر إسحق أَنه قد طَعَنَ في السن، أرادَ أن يباركَ ولدَيه قُبَيل وفاتِه، فدعا إليه ابنَه عيسو – ذاك الذي كان يُحبُّه – وأمرَه أن يصطادَ شيئًا ويأتيَه به ليأكلَ فيُباركَه. أَنذَرت رِفقةُ بسرعةٍ يعقوبَ بذلك، وأمرَته بالذهاب إلى القطيع ويأتيَها بجَدْيَين؛ وعندما أعطاهُما لوالدتِه، أعدَّت منهما لإسحق ما كانت تعرفُ أنه يَستطيبُه، وألبسَت يعقوبَ ثيابَ عيسو التي كانت تحفظُها عندها، وغطَّت يديه وعنقَه بجِلدِ الجَديَين، لِكَيما إذا سمعَ أبوه الذي كان قد فقدَ بصرَه، صوتَ يعقوب، يُصدِّق أقلَّه بِشَعرِ يديه أَنه عيسو أخوه. استغربَ إسحق فعلًا من صوته الذي كان يظنُه صوتَ يعقوب، فجعله يقتربُ منه، ولمّا لَمَس شعر الجِلدِ الذي يُغطّي يدَيه، قال بأنَّ الصوتَ كان بالحقيقة صوتَ يعقوب، ولكنَّ اليدين كانتا يَدَيْ عيسو؛ وبعدَ أن أكل واستنشق رائحةَ ثيابِه المُعَطَّرة، عندما قبّله، باركَه متمنِّيًا له نَدى السماءِ وخصوبةَ الأرضِ، وأقامهُ سيِّدًا على كلِّ أمواله، وأَنهى بركَتهُ بهذه الكلمات: «من يَلعنُكَ يكون ملعونًا، ومن يُباركُك يَمتلئ من البركات».

بالكاد انتهى إسحقُ من هذه الأقوالِ حتى دخلَ عيسو وقدَّم له الطعامَ الذي اصطاده وأعدَّه ليباركَه. انذهَل الشيخُ القديسُ كثيرًا، وأدركَ ما جرى، إلّا أنه لم يَتراجعْ عما فعل، وبالعكس أَيَّده، لأنه رأى واضحًا فيه إصبعَ الله. عندئذ أخذ عيسو يَزْأَر، كما يلاحظُ الكتابُ المقدس، وصار يتشكى عاليًا من غَدْرِ أخيه، وسأل أباه ما إذا لم يكن له إلّا بركة واحدة. وكان في هذا، كما يلاحظُ الآباءُ القديسون، صورة أولئك الذين يربطون الله مع العالم، ويحبّون التَّمتُّعَ معًا بتعزياتِ السماءِ والأرض. تأثر إسحق من صرخاتِ عيسو، فباركَه أخيرًا، ولكنْ بركةَ الأرضِ، جاعلًا إياهُ خاضعًا لأخيه، الأمرُ الذي جعله يَضْمُرُ ليعقوبَ حِقدًا فتّاكًا، فكان عيسو ينتظرُ

موتَ أبيه ليقتُلَه، وما كان يستطيعُ يعقوبُ التَّملُّص من الموت لو لم تَكنْ أمُّهُ المُحِبّةُ رِفقة قد ضَمنَتْه بذكائها ومشوراتِها الصالحةَ التي أعطتها له والتي اِتَّبعَتها.

قبل أن أشرح هذه القصةَ الجميلة، لا بُد من ملاحظة أن يعقوبَ - حسَب جميعِ الآباء القديسين ومفسِّري الكتاب المقدس – يُمثِّلُ صورةَ سيدِنا يسوع المسيح والمختارين، وعيسو، هو رمزُ الهالِكين. فَلْنَفحصْ أعمالَ وسيرةَ الاثنين لِنحكمَ على ذلك.

ب: قصة عيسو

كان عيسو هو البِكر، وكان شجاعًا وقويًّا في جسمه، ماهرًا وقديرًا في سحبِ القوسِ وفي الحصول على صيدٍ وفير. لم يكنْ يَمكُثُ في البيت أبدًا تقريبًا؛ كان يضعُ كلَّ ثقتِه في قوته ومهارته، مشتغلًا في الخارج، غيرَ مُهتمٍّ كثيرًا بإرضاء والدتِه رِفقة، ولا يعملُ لها شيئًا. كان نَهِمًا جدًّا، يُحبُّ فَمَه، حتى أنه باع بُكوريَّتَه بصَحنٍ من العدس، فكانَ مثلَ قايين ممتلئًا حسدًا ضدَّ أخيه يعقوب ويَضطهدُه كثيرًا.

هذه هي سيرةُ الهالِكين التي يقضونها كلَّ يومٍ، مُعتمِدين على قوّتِهم ومهارتِهم في الأمور الزمنية. إنهم أقوياء كثيرًا، ماهرون وفاهمون في الشؤون الأرضية، لكنهم ضعفاء جدًّا وجهلاء كثيرًا في أعمال السماء. لهذا لا يبقون أبدًا أو قليلًا جدًّا في بيوتهم ومساكِنِهم الخاصة، أي في باطنِهم الذي هو البيتُ الداخلي الذي أعطاهُ الله لكل إنسان ليسكنَ فيه، على مِثالِه؛ لأنَّ الله يسكنُ دائمًا في ذاته، أَما الهالكون فإنهم لا يُحبون الحياةَ الروحيةَ ولا العبادَة الباطنيةَ، ويعتبرون الباطنيين والمُتَخلّين عن العالم، والمشتغِلين في الداخل أكثرَ من الذين في الخارج، كَنفوسٍ صغيرةٍ ومُفْرِطةٍ في التَّقوى ومُتوحِّشين.

إنَّ الهالكين لا يهتمون البَتّةَ في إكرام مريَم أمِّ المختارين. نعم إنهم لا يبغضونها صريحًا، بل يُقدّمون لها أحيانًا بعضَ الإكرام، ويَدَّعون أَنهم يحبونها، ولكن فيما عَدا ذلك لا يحتملون أن تُحَبَّ بِحُنُوٍّ، لأنهم ليسوا حاصلين على حُنُوّ يعقوب. فيَنتقدون ممارسةَ الإكرام التي يُقدِّمها لها أبناؤُها وخدامُها الذين يريدون أن يكونوا أُمناءَ نحوها ليكتسبوا عطفَها، ولا يظنون بأنَّ هذا الإكرامَ ضروريٌّ لخلاصِهم طالما لا يَكرهونها، فيعتبرون ذواتِهم من خُدّامها إذا تَلَوا بعضَ الصلوات على شَرَفِها دونَ عَطفٍ ولا بقصد إِصلاحِ أنفسِهم.

يبيعُ هؤلاء الهالكون حقَّ بُكوريَّتِهم، أَعني أَفراح الفِردَوس بصَحنِ عدسٍ، أَيْ بمَلذّاتِ الأرض، فيضحكون ويشربون ويأكلون وينشرحون، ويتلذذون ويرقصون، دون أن يهتموا - مثل عيسو- بأن يُصبِحوا أَهلًا لبركة الآب السماوي. باختصار: إنهم لا يفكرون إلّا بالأرض، ولا يحبون إلا الأرض، ولا يتكلمون ولا يفعلون شيئًا إلّا لأجل الأرض ومَلذّاتها، يبيعون - لأجلِ دخانٍ باطلٍ من الشرف أو لأجل قطعةِ أرضٍ صفراءَ أو بيضاءَ - نعمةَ المعمودية وثوبَ بَرارتِهم وإرثَهم السماوي.

أخيرًا يَكرهُ الهالكون المختارين ويَضطهدونهم كلّ يومٍ سرًّا وعَلنًا، يضايقونهم ويحتقرونهم، ينتقدونهم ويُضادُونهم ويُهينونهم، يسرقونهم ويخدعونهم، ويجعلونهم فقراء ويطردونهم، ويتركونهم على الحَضيض، وبينما يَغتَنون متمتِّعين في مَلذّاتهم، ويَقضون أوقاتًا طيبةً ويُصبِحون عِظامًا عائشين في راحة.

ج – يعقوب رمزُ المختارين

كان يعقوبُ الأخَ الأصغر، ضعيفَ البِنيةِ، حُلوَ الشمائل، هادئًا. يمكثُ عادةً في البيت ليَحظَى بأَلطاف أُمهِ الحنونة رِفقة، التي كان يحبُها حبًّا جَمًّا. وإذا كان يذهبُ إلى الخارج، فلم يكنْ ذلك حسَبَ إرادته، ولا اعتمادًا على فَنِّه ومهارتِه، بل طاعةً لأوامر أمِّهِ. كان يحبُ أمَّه ويُجِلُّها، وَيَودُّ البقاء في البيت بالقربِ منها، وكان أشدُّ فَرحِه رؤيتَها، متجنِّبًا كلَّ ما لا يَروقُ لها، الأمرُ الذي كان يَزيدُ في محبة رِفقة له.

كان يعقوبُ الصغيرُ خاضعًا في كلّ شيء لأُمِّه العزيزة، يُطيعها تمامًا في كلّ شيء، فورًا ودون تأخير، وبمحبة دون تذمُّر، يركض لأقلِ إشارة من إرادتها. كان يُصدق كلَّ ما تقوله له، بِلا جدل، فعندما تقول له: اِئتِني بجَديَين، وعندما يَجلبُهما وتُصلِحُهما طعامًا لأبيه إسحق، لم يُجِبْها قَطُّ بأنَّ جَديًا واحدًا كان كافيًا لإطعام شخصٍ واحد، إنه يعمل ما تقولُه له دونَ مماطلة.

كانت ثقتُه بأُمِّه المُحِبّة عظيمةً، لأنه لم يكنْ يعتمدُ على حَذاقته، بل يستندُ فقط على اهتمام وحمايةِ أُمِّه التي كان يطلُبُها في كلّ حاجاتِه، ويستشيرُها في كلّ ارتياباتِه. مثلًا عندما سألها إذا كان بدلَ البركةِ ينالُ اللعنةَ، صدّقها واعتمدَ على قولِها له إنها هي ستأخذُ اللعنةَ على نفسِها.

أخيرًا، كان يَقتدي، حسبَ طاقتِه، بالفضائل التي كانَ يراها في أُمه، ويَتبَيَّن أنّ أَحدَ أسبابِ مُكوثِه جالسًا في البيت، كان ليقتدي بأُمِّه الفاضلة، مبتعدًا عن العِشرات الرديئة مُفسِدةِ الأخلاق، وبهذه الواسطةِ كان يجعلُ ذاتَه أهلًا لقَبولِ البرَكة مُضاعَفَةً من أبيه العزيز.

هذا هو السُّلوكُ الذي يسيرُ فيه كلَّ يومٍ المختارون الجالسون في البيت مع أُمِّهم، بمعنى أَنهم يحبون العزلة، فهم باطنِيّون، مثابِرون على الصلاة على مثال وفي عِشرة أُمِّهم العذراءِ القديسة، تلك التي كلُّ مجدِها هو من الباطن والتي أَحبَّتْ في حياتها الخِلوةَ والصلاةَ كثيرًا. يَظهرون أحيانًا في الخارج، إلّا أنهم يقومون بذلك طاعةً لإرادةِ الله وإرادة أمِّهم العزيزة، مكمِّلين واجباتِ حالتِهم. فمهما عمِلوا من الأمور العظيمةِ ظاهرِيًا فإنهم يعتبرون أفضلَ منها تلك التي يقومون بها داخلَ أنفسِهم وفي باطنِهم وفي عِشرة الأُمّ القديسة مريم، لأنهم يقومون بعمل خلاصِهم العظيم؛ وجميعُ الأعمال الأُخرى، بالمقارنة به، ما هي إلّا ألعابٌ صِبيانية. لذا، بينما يشتغلُ إخوتُهم وأَخواتُهم أحيانًا في الخارج بقوة كبيرة، ولَباقةٍ ونجاحٍ مع مديحِ العالم ورِضاه، فهم يَعلمون بنور الروح القدس، أنّ ما هو أفضلُ بكثير مع مجدٍ أعظم، هو المكوثُ مُختفين في العزلة مع يسوع المسيح مِثالِهم، في خضوعٍ كاملٍ وتامٍّ لأُمِّهم، وأنّ هذا أفضل من اجتراحِ عجائبِ الطبيعةِ والنعمة في العالم، ومن أمثال عيسو الكثيرين الهالكين: «فالمجدُ والغِنى في بيته» (مز١١٢(١١١)/٣)، يَعني أَنَّ مجدَ الله وثرواتِ العالم هي في بيتِ مريم.

كم هي جميلةٌ مذابحُك أيها الربُّ يسوع (مز٨٤(٨٣)/١-٨). العصفورُ وجَد له بيتًا لِمَأواه، والحمامةُ عُشًّا لصغارها. كم هو سعيدٌ الإنسانُ الذي يسكنُ في بيتِ مريم، حيث أنت أولُ مَن اتَّخَذتَ فيه إقامتَكَ. في دار المختارين هذه، يَقبلُ المسيحيّ عونَه منكَ وحدَك، وقد هيَّأ مصاعدَ ودرجاتٍ لكلِّ الفضائل في قلبه، لأجل الارتقاء نحو الكمالِ في وادي الدموع هذا.

إنهم يُحبّون العذراءَ الطوباوية بحنان ويُكَرّمونها حقًّا، كأُمِّهم الفاضلةِ وسيِّدتِهم، ويحبونها لا فقط بالفم بل حقًّا، يحترمونها لا فقط خارجيًا ولكن من عمق القلب. إنهم يتجنبون مثلَ يعقوب، كلَّ ما يقدرُ أن يُكَدِّرَها، ويمارسون بحرارة كلَّ ما يظنون أنه يقدرُ أن يُكسِبَهم عطفَها. إنهم يحملون لها جَديين كما فعل يعقوب، وذلك ١) لكي تستلمَها كشيءٍ عائدٍ لها، و٢) لكي تقتلَ فيهم الخطيئة وتميتَهم عن ذاتِهم، فتَسلخَ جلدَهم وتخلِّصَهم من محبتهم الذاتية، وهكذا تُرضي ابنَها يسوع، ذاك الذي لا يُريدُ أصدقاءَ وتلاميذَ له، إلّا المائتين عن ذواتهم؛ ٣) ولكي تَصلُحَ لِذَوق الآب السماوي ولمجدِه الأعظم، الأمرُ الذي تَعرفُه أحسنَ من كلّ خليقة؛ ٤) ثم لكي باهتمامها وشفاعتِها يصيرَ هذا الجسدُ وهذه النفسُ المُطَهَّران من كلّ وصمةٍ والمائتَين جيّدًا

والخالصَين، طعامًا لَذيذًا لائقًا بِفمِ الآب السّماوي وبِبَركتِهِ. أَليس هذا ما سيَعملُهُ المُختارون، الذين سيتقبَّلون ويُمارسون التكريسَ الكاملَ ليسوع المسيح بيدَيْ مريم، حسبَما ستعملُه لهم، ليُظهِروا نحو يسوعَ ومريم محبةً فعّالةً وشُجاعة.

يقولُ المرذولون إنه تكفي محبةُ يسوع وإكرامُ مريم، ولكن ليس حسَب جوهرِهم (أمثال ٩/٣)، ولا إلى درجةِ أنْ يذبحوا لهما جسدَهم وحَواسَّهم، ونفسَهم وأهواءَهِم كما يفعلُ المختارون.

أمّا المختارون فإنهم خاضعون وطائعون للعذراءِ القديسة، كما لأُمِّهم الصالحة، على مثال يسوعَ المسيح الذي في الثلاثِ والثلاثين سنةً التي عاشَها على الأرض، قضى منها ثلاثين في تمجيدِ الله أبيه، بخضوعه التامِّ والمُطلَقِ لأمِّه القديسة.

إنهم يُطيعونها باتّباعِهم نصائحَها بِدقّةٍ، مثلَ يعقوبَ الصغير الذي كان يُطيعُ نصائحَ رِفقة، التي كانت تقول له: «إِصغِ لنصائحي» (تك ٨/٢٧)، أو مِثل مَدعوّي عرس قانا الذين قالت لهم العذراء: «كلُّ ما يقولُه لكم افعلوه» (يوحنا ٥/٢)؛ فيعقوب بسبب طاعتِه لأُمه، اقتبلَ البركةَ كما في أعجوبة، ولو أَنه طبيعيًّا ما كان يجبُ أن ينالَها.

كذلك المدعوّون في عرس قانا، لأنهم أَطاعوا مشورَة العذراء القديسة، تَشرَّفوا بالحصول على أولِ أعجوبةٍ ليسوعَ المسيح، حيث حوّل فيها الماءَ خمرًا على طَلَب أمِّه القديسة. وهكذا جميعُ الذين سيقتبلون بركةَ الآب السماوي حتى نهايةِ الأجيال. أولئك الذين سيَتشرَّفون بالحصول على عجائبِ الله، لن يقبلوا هذه النِّعَم إلّا نتيجةَ طاعتِهم الكاملةِ لمريم. أَما أمثالُ عيسو، فبالعكس يخسرون بركَتهم بسببِ عدمِ طاعتِهم لمريم. للمختارين ثقةٌ كبيرة في صلاحِ العذراء الطوباوية وقدرتِها، فإنهم يطلبون دونَ انقطاع معونَتها، وينظرون إليها كما إلى نَجمتِهم القُطبيّة، ليَصلوا إلى الميناء الصالح، ويكشفون لها صعوباتِهم وحاجاتِهم بسذاجةِ قلبٍ كبيرة، ويتعلقون بجودتِها ولُطفِها، ليحصلوا على مغفرةِ خطاياهم بشفاعتها أو ليتذوقوا أَلطافَها الوالدية في شدائدِهم وضَجَرِهم. لا بل يُلقون ذاتَهم، ويُخفون أنفسَهم ويختفون بِشَكلٍ عجيبٍ في حِضنها المحب البَتوليّ، ليَتَنقَّوا من أقل الأدران ويجدوا عندها بِشَكلٍ كامل، يسوع، حيث يسكن فيها كما في عرشه الممجَّد. يا لَلسَّعادة! ألا تظنوا - يقول الأبُ غيريك - بأنَّ أعظمَ سعادةٍ هي السُكنَى في حَشا مريم، حيثُ الربُّ وضعَ عرشَه، مِمّا هم أفضل مِن السُكنى في حِضنِ إبراهيم؟

أما المرذولون، فبالعكس، يضَعون ثقتَهم كلَّها في ذواتهم، ولا يأكلون إلَّا معَ الابن الشاطر، ما تأكلُه الخنازيرُ؛ لا يغتذون إلَّا مع الضفادع السامّة، الترابَ؛ ولا يحبون إلَّا الأشياءَ المنظورَة والخارجيَة، مع مجدِ الدُّنيا؛ فإنهم لا يتذوّقون قَطُّ حلاوةَ صدرِ مريمَ وحليبَها. إنهم لا يشعرون بتاتًا بسَندٍ ما، أو بالثقة التي يشعرُ بها المختارون نحو أُمِّهم الصالحة مريم. إنهم يحبون جوعَهم في الخارج، كما يقولُ القديس غُرِغوريُس لأنهم لَا يحبون أنْ يتذوقوا الحلاوةَ المُعَدّة لهم في داخلهم وداخلِ يسوع ومريم.

أخيرًا يُحافظ المختارون على طرق العذراءِ مريمَ أمِّهم، أَعني أَنهم يَقتدون بها، لذا هم سعداء حقيقةً، ويحملون العلامةَ المعصومة لخلاصِهم، كما تقولُ هذه الأيامُ المباركة، «طوبى لِمَن يَحفظُ طُرُقي» (أمثال ٣٢/٨)، أي طوبى لمن يمارسُ فضائلي، ويقتفي آثارَ حياتي بمعونةِ النعمةِ الإلهية. إنهم سعداءَ في هذا العالمِ، في حياتِهم بكثرة النعم والملذاتِ التي أُشرِكُهم فيها من امتلائي، وبِشَكلٍ فائض، أكثرَ مِمّا للذين لا يقتدون بي عن قُربٍ. إنهم سعداءَ في مماتهم الذي هو طَيِّبٌ وهادئٌ، والذي أحضُرُ فيها عادةً لأقودَهم أنا بنفسي إلى الأفراح الدائمة. وأخيرًا، سيكونون سعداءَ في الأبدية، لأن لا أحدَ من الخُدّام الصالحين الذين اقتدوا بفضائلي أثناءَ حياتِهم يهلِكون أَبدًا.

أما المرذولون، فبالعكس، إنهم تعيسون في حياتهم، وفي مماتهم، وفي الأبدية، لأنهم لا يقتدون بفضائل مريم، بل يكتفون بالانخراط أحيانًا في أَخَويّتِها، أو أن يتلوا بعضَ الصلواتِ إكرامًا لها، أو ربما أن يمارسوا إكرامًا خارجيًّا على شرفها.

أيتها العذراءُ القديسة، يا أمي الفاضلة، كم هم سعداء أُولئكَ الذين لا يَدَعون ذواتِهم يُخدَعون من عبادةٍ باطلة نحوَكِ، بل يحفظون بأمانة طرقَكِ، ومشوراتِكِ وأوامرَكِ وكم هم تعساء وملعونون أولئك الذين يُسيئون استعمالَ تكريمِك، ولا يحفظون وصايا ابنِك «ملاعين هم كلّ الذين لا يحفظون وصاياك» (مز ١١٩(١١٨)/٢٠).

سادسًا- العذراءُ مريمَ وعبيدُ محبّتِها

أُلخِّص هنا الرِّعاية المُحِبّةَ التي تُسْديها الأُمُّ العذراء - كخيرِ الأمهات - نحو خدّامِها المُحِبّين الذين كرَّسوا ذواتِهم لها.

١ – إنها تحبهم

«إني أُحبُّ الذين يُحبونني» (أمثال ١٧/٨). تُحبهم لأَنها أُمُّهم الحقيقية، وكَكُلِّ أُمٍّ تحبُّ دائمًا ابنَها ثمرةَ أحشائِها. تُحبُّهم شاكرةً لهم محبَّتَهم لها كأُمٍّ صالحة. تحبهم لأنهم مختارون من الله: «أحبَبتُ يعقوب وأَبغضتُ عيسو» (رومية ١٣/٩). تحبهم لأنهم كرَّسوا ذاتَهم لها، فهم نصيبُها وإرثُها. تحبهم بحُنُوِّ كلِّ الأُمَّهات معًا وبِحنانِهِنَّ. ضعوا إذا استطعتم الحبَّ الطبيعيَّ لكلِّ الأمَّهات نحو أولادِهِنَّ، في قلبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدة لابنٍ وحيد، فسيكون هذا الحبُّ بلا رَيبٍ عظيمًا جدًّا لا مثيلَ له، ومع ذلك فمِنَ المُؤَكَّد أنَّ مريمَ تُحب أبناءَها بحنانٍ أعظمَ من حبِّ تلك الأُمّ لابنِها. إنها لا تُحبُهم فقط عاطفيًّا، ولكن أيضًا فِعليًّا. إن محبتها لهم هي حيّةٌ وفَعّالة، كمحبة رِفقة ليعقوبَ وأكثر؛ إنّها الأُمُّ الصالحة التي لم تكنْ رِفقةُ إلا رمزًا لها.

إنها تتحيَّنُ الفُرصَ، لتحصلَ لأبنائِها على بركةِ الآبِ السماوي - مثلَ رِفقة - لصُنعِ الخير معهم، ورفعِ مقامِهم وإثرائِهم. وإذْ تَرى بِوضوحٍ في الله كلَّ الخُيور والشرور، والنَّصيبَ الصالح والحظَّ الطالح، البركاتِ واللعناتِ، فإنَّها تُرتّبُ الأمورَ عن بُعد، لتُخلِّصَ خدامَها من كلّ الشرور وتُفيضَ عليهم كلَّ خيرٍ، بحَيثُ إنّه إذا وُجِد طالعٌ سعيدٌ للحصول عليه من لَدُنِ الله، فمِن المؤكَّد أنَّ مريمَ ستحصلُ عليه لأَحدِ أبنائِها الصالحين، وستُعطيهِم النعمةَ لإنجازِ عملِهم بأمانة، لأنها المهتمَّةُ بتدبير أُمورِنا.

تَمنَحُ مُحبيها المشوراتِ الصالحةَ، مثل رِفقة ليعقوب؛ ومن بينِ هذه، تُلهِمُهم بحمْلِ جَديَين إليها - أعني جسدَهم ونفسَهم - ليكرّسوهما لها، فتصنعَ منهما طعامًا لذيذًا لله، وبأن يعملوا هم كلَّ ما علّم ابنُها يسوعُ بالكلماتِ والأفعال. وإن كانت لا تُلهمُهم بذلك بذاتِها، فإنها توحي لِلملائكةَ بمساعدةِ خدّامِها الأُمناء.

ماذا تفعلُ هذه الأُمّ الصالحةُ عندما يُكرِّسُ المرءُ لها جسَدَه ونفسَه وكلَّ ما يتعلقُ بهما، دونَ استبقاءِ أي شيء؟ إنَّها تفعلُ ما صنَعتْه رفقةُ سابقًا بالجَديين اللَّذَين حَمَلَهما لها يعقوب: ١) إنها تذبُحُهُما وتُميتُ آدمَ القديم. ٢) تَسلُخُهما وتُجرّدُهُما عن جِلدِهما الطبيعي وأميالِهما

الطبيعيةِ ومحبتِهما الذاتيةِ وإرادتِهما الخاصةِ ومن كلّ ما يتعلقُ بالخليقة. ٣) إنها تُطهّرهُما من أَدرانِهما وأوساخِهما وخطاياهُما. ٤) تُصلِحُهما حسبَ رغبةِ اللهِ ومجدِه الأعظم.

وبما أَنه لا توجدُ إلا هي التي تعرفُ بِشَكلٍ كامل الذَّوقَ الإلهيَ ومجدَ العَليّ الأعظم، فلا يوجد غيرُها يعرفُ بلا خطإٍ، كيفَ يُعَدُّ ويُهيَّأ جسدُنا ونفسُنا للذوق المتسامي جدًّا، وهذا المجدُ المختفي بِشَكلٍ غيرِ متناهٍ وأزلي.

وعندما تَقبلُ هذه الأُمّ الصالحةُ التقدمةَ الكاملة التي عملناها لها بتقديمنا ذاتَنا واستحقاقاتِنا وتعويضاتِنا بواسطة الإكرامِ الذي تكلّمَتْ عنه، وتكونُ قد جرَّدَتْنا مِن ثيابِنا القديمة، فإنها تُحضّرنا وتجعلُنا أَهلًا للمُثول أمام أبينا السماوي، وتُلبِسُنا ثيابًا نظيفةً وجديدة، ثمينةً ومعطَّرة من عِطريات عيسو البكر، أي ابنِها يسوع المسيح، تلك الثيابَ التي تحفظُها في بيتِها، أَعني التي هي تحتَ سلطانِها، إذْ أنها المؤتمَنةُ على الخِزانة والموزِّعة العامّة لاستحقاقاتِ وفضائلِ ابنِها يسوعَ المسيح، تلك التي تَمنحُها وتُشرِكُ بها من تريد، وكما تُريد، وعلى قدرِ ما تُرِيد. فتحيطُ رقَبةَ ويدَيْ خَدَمِها بجِلْد الجَديين المذبوحَين والمسلوخَين، أَعني أَنها تُزيّنها باستحقاقاتِ وقيمةِ أَعمالِهم الخاصة، فتَذبح وتُميت حقًّا كلَّ ما يوجد في شخصهم من غير طاهرٍ وغيرِ كامل. إلا أَنها لا تضعُ ولا تُضيّع كلَّ الخير الذي عمِلَتْهُ فيهم، بل تحفَظُه وتَزيدُه لتجعلَ منه زينةً حولَ عنُقِهم ويديهم، أَعني لتُقوّيَها لأجل حملِ نيرِ الرب، الذي يُحمَلُ على الرقبة، ولكي يقوموا بأعمالٍ كبيرة لمجدِ الله ولخلاصِ إخوتِهم المساكين. ثم تُعطي عِطرًا جديدًا ونعمةً جديدةً لهذه الثياب والزينات بإعطائها لهم ثيابَها الخاصة أي استحقاقاتِها وفضائلَها تلك التي ورَّثَتْها لهم عند موتِها، فكلُ خدامِها وعبيدِها الأُمناء، لهم ثيابٌ مضاعفة أَعني لهم ثيابُ ابنِها وثيابُها الخاصة (أمثال ٣١/٢١) ولهذا لا يخافون بَرَدَ يسوع الأبيضَ كالثلج، البَرَد الذي لا يَقوى المرذولون على تحملّه، إذْ أنهم مُجرَّدون من استحقاقات يسوعَ المسيح ومريمَ العذراء.

وأَخيرًا تجعلُهم ينالون بركةَ الآبِ السماوي، مع أَنهم ليسوا إلَّا مولودين بعده وأبناء بالذخيرة، وما كانوا يستحقون ذلك طبيعيًّا. إنهم يتقدمون بثقة، بهذه الثيابِ الجديدةِ الثمينة، ذاتِ العطورِ الطيبة، بجسدِهم ونفسِهم المستعدَّين والمهيَّئَين من سرير الراحة لأبيهم السماوي، فيَسمع صوتَهم ويُميّز صوتَ الخطأَةِ، ويلمِسُ أياديهم المُغطّاةِ بالجُلود، ويشُمُّ رائحةَ ثيابِهم الطيبة، ويأكلُ بفرحٍ مِمّا أعدَّته له مريمُ أُمُّهم، فيعرف فيهم الاستحقاقاتِ والرائحةَ الطيبة التي لابنِه وأمِّه القديسة فيُعطيهم بركتَه المضاعَفة، بركةَ سمْنِ الأرض (تكو ٢٧/٢٨)، أعني أنَّ هذا الآبَ الصالحَ يمنحُهم الخبزَ اليومي مع كفايةٍ فائضةٍ من خيرات الأرض، ويُقيمُهم

سادةً على إخوتِهم الآخَرين المرذولين، مع أنَّ هذه الأَولويّةَ لا تَظهرُ دائمًا في هذا العالم، حيث تَعبُر في لحظة واحدة (١كور ٣١/٧) وحيث كثيرًا ما يُسيطر المرذولون (مز٩٤(٩٣)/٣)، ولكن هذه الأوَّليةَ هي حقيقيةٌ وستَظهرُ بوضوحٍ في العالم الآخَر، في كلّ الأبدية، حيث الأبرار- كما يقولُ الروحُ القدس - يسيطرون ويحكمون الشعوبَ (حكمة ٨/٣). ولا يَكفي أن تُبارِكَ جلالتُه شخصَهم وخيراتِهم فقط، بل تُبارِك أيضًا كلَّ الذين سيباركونهم، وتلعنَ جميعَ الذين يلعنونهم ويضطهدونهم.

٢ – إنها ترعاهم

إنَّ واجبَ المَحبّة الثاني الذي تُمارسُه العذراءُ القديسةُ نحو خُدامِها المُحبّين، هو رعايتُهم جِسمًا ونَفسًا، مقدِّمةً لهم ثيابًا مضاعَفةً، مع أطيبِ الأطعمة من المائدة الإلهية - أيْ خبزِ الحياة الذي عملته -، فتقول لهم بفم الحكمة: «امتلِئوا من أَجيالي» (ابن سيراخ ٢٦/٢٤). يا أبنائي الأعزاء، امتلئوا من يسوع ثمرةِ الحياة الذي وضعْتُهُ في العالم لأجعلكم. هلُمّوا كُلوا من خبزي اشربوا خمري الذي مزجْتُه لكم (أمثال ٥/٩)؛ كلوا واشربوا واسكَروا يا أعزائي» (نشيد ١/٥)؛ هَلمّوا كلوا من خبزي الذي هو يسوع واشربوا من خمر محبّتِه الذي مزجْتُهُ لكم مع حليبي.

٣ – إنها تقودُهم

إنَّ الخيرَ الثالث الذي تَعملُه الأُمّ القديسةُ لخدامِها الأُمناء، هو قيادتُهم وتدبيرُهم حَسَبَ إرادةِ ابنِها. كانت رِفقة تقودُ يعقوبَ الصغير وتُعطيه من حينٍ إلى آخَر نصائحَ مفيدةً، سَواءٌ للحصول على بَرَكة أبيه، وسَواءٌ لِتجنُّبِ كراهيةِ واضطهادِ أخيه عيسو. ومريمُ التي هي نَجمةُ البحر، تقودُ كلَّ خدامِها الأُمناء إلى مَرفإِ السلام، فتُريهم طُرقَ الحياةِ الأبدية وتجعلُهم يتجنبون الخُطواتِ الخَطِرةَ، وتقودُهم باليدِ في سبيل البَرارة وتَسنِدُهم عندما يَميلون نحو السقوطِ وتُوبِّخهم كأُمٍّ مُحِبّة، عندما يرتكبون نقصًا وتُقاصِصُهم أَيضًا أحيانًا بمحبة. فهل يقدرُ ابنٌ طائعٌ لمريمَ، أُمِّه المرضِعةِ ومُدبّرَتِه العظيمة، أن يَتيهَ في طُرقِ الأبدية؟ «باتِّباعِك إيّاها لن تضيعَ»، يقولُ القديس بِرنار. لا تخافوا على ابنٍ حقيقي لمريم من خِداع الخبيث وسقوطِه في هَرطقة، لأنّه حيث تمشي مريمُ، لا يقدِرُ الاقترابَ لا الشيطانُ ولا الهَرطقاتُ، «إذا أمسكَتكَ فلن تسقطَ»، يقول القديس بِرنار.

٤ – إنها تُدافع عنهم وتَحميهم

إنَّ الرعايةَ التي تُؤَدّيها مريمُ لأبنائِها وخدامِها الأُمناء هو دفاعُها عنهم وحمايتُهم ضدَّ أعدائِهم، كما نجَّتْ رِفقةُ بهِمّتِها ومَهارتِها يعقوبَ من كلّ الأخطارِ التي أحاقت به، لا سِيَّما من القتل الذي كان سابقًا لقايين ضدَّ هابيل. فمريمُ الأُمّ المُحبّة للمختارين، تُخفيهم تحتَ أجنحةِ حمايتِها، كما تفعلُ الدَّجاجة بفراخِها: تَتّصل بهم وتُخاطبُهم وتَغُضُّ الطَّرْفَ عن ضُعفِهم لتُنقذَهم من الباز والنسر، فتَبقى بجَانبِهم، وتُرافقُهم كجيشٍ مُصطَفٍّ للقتال؛ فهل يَخافُ من أعدائِه إنسانٌ مُحاطٌ بمئةِ ألفِ جنديٍّ لِلدِّفاع عنه؟ إنَّ الخادمَ الأمين لمريمَ، المُحاطَ بشفاعتِها وقدرتِها المُلوكية، يخافُ أقلَّ. إنَّ هذه الأُمَّ الفاضلةَ وأميرةَ السماوات القديرة تُرسِلُ بالأحرى فِرَقًا من ملايين الملائكة، لمساعدة أحَدِ خدامِها، الذي كان أمينًا لها، وملتجِئًا إليها، فلن يرضخَ لخَباثةِ وعددِ وقوةِ أعدائِه.

٥ – إنّها تَتشفَّع فيهم

إنَّ الخيرَ الخاصّ والأكبر الذي تُقدّمُه لهم الأُمُّ الحبيبة مريم لمُحبّيها الأمناء، هو تَشفُّعُها بهم لدى ابنِها لِتَهدئتِه، فتربِطُهُم به برباطٍ مَتين جدًّا وتَحفظُهم له. قرَّبَتْ رفقةُ يعقوبَ من فِراش أبيه، فلمَسَهُ الشَّيخُ وعانقه وقَبَّلَه أيضًا مسرورًا، لأنه كان فرِحًا وشبِعًا من اللحومِ المُعَدّةِ جيدًّا التي حملَها له. فاستنشق بلَذّة رائحةَ العطورِ التي تفوحُ من ثيابِه، فهتَف: «هوذا رائحةُ ابني مثلُ رائحة حقلٍ ممتلِئ، باركَه الرب» (تك ٢٧/٢٧). فهذا الحقل الممتلئ الذي خلَبَت رائحتُه العَطِرة قلبَ الأبِ الشيخ، ما هو إلا رائحةُ الفضائلِ والاستحقاقات المريمية التي هي كحقلٍ ممتلئ من النِّعم، زرَعها اللهُ الآبُ لابنِه الوحيد، كبِذرةِ حنطةِ المختارين.

إنَّ ابنًا معطَّرًا بعُطورِ مريمَ المحبوبة، هو مقبولٌ من يسوعَ المسيح أبي الأجيال المُقبِلة (أشعيا ٦/٩) إنه حقًّا متَّحِدٌ معه فورًا وبِشَكلٍ كامل.

هذا وبعدَ أن تَملأَ أبناءَها ومُحبّيها الأمناءَ من امتيازاتها، وقد استمدَّتْ لهم بركةَ الآبِ السماوي والاتحادَ مع يسوعَ المسيح، فإنّها تَحفظهم فيه وهو فيهم، وتَسهر عليهم دائمًا، خوفًا مِن أنْ يَفقِدوا نعمةَ الله ويسقطوا في فِخاخ أعدائِهم؛ «تُمسِكُ القديسين في امتلائِهم وتُثَبِّتُهم

حتى النهاية» (القديس بوناڤِنتورا). هذا شرحٌ لهذا الرمز الكبير والقديم لسِرِّ الاختيار والرَّذلِ، ذلك السّرِّ المجهول والمملوء أسرارًا.

سابعًا- في المفاعيل العجيبة الناجمةِ
عن هذا التكريم الحُبّي

١ – معرفةُ الذات واحتقارُها

ستعرفُ بالنور الذي يَهَبُكَ إيّاه الروحُ الإلهيّ بشفاعة الأُمّ الحبيبة مريم، عُمقَكَ الرَّديءَ وفسادَك وعدَم مقدرتِك على الخير. نتيجةً لذلك، ستحتقرُ ذاتَك ولا تُفكِّرُ عن نفسك إلا كبَشاعة. ستنظر إلى ذاتك مثلَ الحَلَزونة التي تُفسد كلَّ شيءٍ بلُعابها، أو كحيةٍ خبيثةٍ مُراوِغة. إنَّ مريمَ المتواضعةَ ستُشاركُك بتواضعِها العميق الذي يجعلُك أنْ تحتقرَ ذاتَك ولن تَزدري أحدًا بَعدَ ذلك بل ستُحبُّ الهَوان.

٢ – الاشتراكُ في إيمانِ مريمَ

تُشركُك العذراءُ الطوباويةُ في إيمانها الذي كان لها على الأرض، والذي كان أعظمَ من إيمان كلِّ الآباء والأنبياء الرسل، وكلِّ القديسين معًا. حاليًّا وهي من المالِكين في السماء، قد انتهى عندها دورُ الإيمان، لأنها ترى بوضوح كلَّ شيء في الله، بواسطةِ نورِ المجد. إلَّا أنها لا تَنسى أبناءَها المحبين الذين يلتجئون إليها، فتطلبُ لهم إيمانًا راسخًا وخالصًا في حياتهم الأرضية، كيلا يتعلقوا بالأمور الحِسّية، بل يكونَ لهم إيمانٌ حارٌّ وحيٌّ بالمحبة، يجعلُهم يعملون كلَّ شيء عن محبة كاملةٍ، فيَثبُتون كالجَبل وسْطَ الزوابعِ والمصائب؛ إيمانٌ فعّالٌ كمفتاحٍ سرّي يَفتحُ أَمامَهم كلّ الأبوابِ لفَهم أسرارِ يسوع وغايةِ الإنسان الأخيرة، وحتى قلبِ الله؛ إيمانٌ شجاعٌ يَحُثُّ على القيام بأعمالٍ كبيرة لمجدِ اللهِ وخلاصِ النفوس؛ إيمانٌ يشبه مصباحًا مُضيئًا لمعرفةِ الحياة الإلهيةِ وكنوزِ الحكمة المَخفية، يُنيرون به ظلالَ الموتِ وظلماتِه لإضرام الفاترين وإحراقِهم بذهبِ المحبة الخالصة، فيَهَبوا الحياةَ الروحيةَ للمائتين في الخطيئة، ويلمِسوا بكلماتِ اللطفِ القلوبَ الباردةَ ويُقاوموا الشيطان وكل أعداءِ الخلاص.

٣ – يَمنحُ نعمةَ المحبة المَحْضة

إنَّ الأُمَّ المُحِبةَ الجميلةَ (سيراخ ٢٤/٢٤) ستَنزع عن قلبك كلَّ وَسواس وكلَّ خوفٍ عَبْديّ، وستفتحُه وتُوسِّعُه لكي تَركُضَ في وصايا ابنِها (مز١١٩(١١٨)/٣٢) بِحرية أبناءِ اللهِ المقدسة،

ولِتُدخِلَ فيه المحبةَ المَحْضةَ التي بيدها وهي كنوزُها، بحَيثُ إنَّكَ لا تسيرُ بعدُ كما فعلتَ حتى الآن، خوفًا من اللهِ/المحبة، ولكن لأجل المحبةِ الخالصةِ، إذْ أنّك ستنظر إليه كما إلى أبيك الصالح، لتعملَ كلَّ ما يُرضيهِ دائمًا، وتتحدثَ معَه بثقة، كما يتحدثُ الابنُ مع والدِهِ الفاضل؛ وإذا حدثَ لِحظِّكَ التَّعيس أنْ أهَنتَه، فإنك ستخجلُ حالًا من ذاتِك أمامه، وتطلب منه المغفرةَ بتواضعٍ، وتَبسُطُ نحوه اليدَ ببساطة وتَنهَضُ بمحبة دونَ ارتباكٍ ولا قلقٍ، وتُكَمِّلُ نحوه بلا إحباطٍ.

٤ – يُعطي ثقةً عظيمةً بالله ومريم

ستملأُك العذراءُ القديسةُ بثقة عظيمة نحو الله ونحوَها. لأنك لن تقتربَ بَعدُ من يسوع المسيح بنفسِك، ولكنْ دائمًا بواسطة هذهِ الأُمِّ الفاضلة. وبما أَنك قد أَعطيتَ لها كلَّ استحقاقاتِك ونِعمِك وتعويضاتِك، لكي تتصرفَ بها حسَبَ إرادتِها، فستُشركُكَ بفضائِلها وتُلبِسُك استحقاقاتِها بحَيثُ إنك تقدرُ أن تقولَ لله بثقة: هوذا مريمُ أَمَتُك، ليكن لي كَقَولِك (لوقا ١/٣٨). ثم، بما أنك قد خصَّصتَ لها ذاتَكَ بجُملتِها من نفسٍ وجسد، وهي السَّخيّة مع الأسخياء وأسخى الجميع، فَستَهَبُ ذاتَها لك بالمُقابل بِشَكلٍ عجيبٍ وحقيقي، حتى إنك تقدرُ أن تقولَ لها بجسارة: «خلِّصيني، إنني خاصَّتُكِ» (مز ١١٩(١١٨)/٩٤)، أو مع التلميذ الحبيب: «آخُذُكِ إلى خاصَّتي»، أو أن تقولَ أيضًا مع القديس بوناڤِنتورا: «ها هي سيدتي المُخَلِّصة لي، أعملُ بثقة، ولن أخافَ لأنكِ أنت قوتي ومجدي في الرب»، وفي موضعٍ آخر جاء: «إنني خاصَّتُك بِجُملتي، وكلُّ شيء لي هو لكِ، أيتها العذراءُ المجيدة المبارَكة بين الجميع، أَضَعُكِ مثلَ خاتَمٍ فوق قلبي لأنَّ محبَّتكِ قويةٌ كالموت»؛ وبمَشاعِر النَّبي يُمكنكَ أَنْ تقولَ لله: «لم يتكبَّرْ قلبي يا ربّ، ولم ترتفعْ عَينايَ، ولم أَسِرْ متكبِّرًا ولا أُفتِّشُ عن أمورٍ عظيمة عجيبة، ومع ذلك لستُ متواضعًا بعدُ، إلا أنّني رفعتُ نفسي وشَجَّعْتُها بالثقة، فأنا كطفلٍ مفطومٍ من مَلذّاتِ العالم، مستنِدٍ إلى صَدرِ أمّي، وهنا أَفيضُ بالخيرات» (مز١٣١(١٣٠)/١-٢). هذا وإنَّ ما يَزيدُكَ ثقةً فيها، هو أنك قد أعطيتَ لها كلَّ ما لكَ من الصلاح لتوَزِّعه وتحفظَه، فستكون لكَ ثقةٌ أقلُّ في ذاتك وأكثر بكثير فيها، لأنها كَنزُك. يا لَثقةِ وتعزيةِ تلك النفسِ التي تقدرُ أنْ تقولَ بأنَّ كَنزَ اللهِ الذي وُضع فيه كلُّ ما هو ثمين، هو أيضًا كَنزُه!

٥ – الاشتراكُ في نفْسِ مريم وروحِها

إنَّ نفسَ مريمَ ستشتركُ معكَ لتمجيدِ الرب، وروحُها سيأخُذُ مكانَ روحِك لكي تفرحَ باللهِ مخلِّصها، شَرْطَ أن تكونَ أمينًا في ممارسة هذا التكريم. «لتَكنْ نفْسُ مريمَ في كلّ واحدٍ لتُعظِّمَ الربَّ، وليكنْ روحُ مريمَ في كلّ واحدٍ ليفرحَ بالله» (القديس أمبروزْيُس).

متى يَحينُ الزمنُ السعيدُ الذي فيه تُثَبَّتُ الأُمُّ المباركةُ سيدةً وملكةً على القلوب، لتُخضِعَها بجُملتها لسيرةِ ابنِها العظيمِ الوحيدِ يسوع؟ حينئذٍ ستَستنشقُ النفوسُ مريمَ قدْرَ ما تستنشقُ الأجسامُ الهواءَ. حينئذٍ ستحدث أُمورٌ عجيبةٌ في هذه المواضعِ المتواضعةِ حيثُ الروحُ القدسُ يجدُ أَمتَهُ الحبيبةَ مصوَّرةً في النفوسِ، وعندئذٍ هو أيضًا سيأتي بفَيضٍ ويَملؤُها من مواهبِه - خاصّةً موهبةِ الحكمةِ - ليَملأَها بِالنِّعَم.

متى سيأتي هذا اليومُ السعيد، الذي سيكون عصرَ مريم، حيث نفوسٌ كثيرة ممتازةٌ طلبَتْها مريم من العَليّ، تَفقِدُ ذاتَها في عمقِ باطنِها، لتُصبِحَ صُورًا حيّةً لمريم، لتُحبَّ يسوع المسيح وتُمجّدَه؟ ولكن لن يأتيَ هذا إلا عندما سيُعرَفُ هذا الإكرامُ ويمارَس. يا ربّ، لكي يأتي ملكوتُكَ، لِيَأتِ مُلكُ مريم.

٦ – تحويلُ النفوسِ في مريمِ على غِراريسوع

إذا حُرِثَتْ مريمُ جيدًا - وهي شجرةُ الحياة - في نفوسِنا بأمانة بواسطة هذا التكريم، فإنها ستَحمِلُ ثمرَها في حينهِ، وما ثمرُها هذا إلَّا يسوعُ المسيح. أرى كثيرين من الوَرِعين الذين يُفتّشون عن يسوع، البعضُ في هذا الطريقِ وهذا الإكرام، والآخَرين في غيرها؛ ومرارًا، بعد أن يكونوا قد اشتغلوا كثيرًا، كما قالَ الرُّسل: «اشتغلْنا طيلةَ الليلِ ولم نَصطَدْ شيئًا» (لوقا ٥/٥)، فيُمكنُ القولُ لهم: «اشتغلتم كثيرًا وربِحتم قليلًا» (حَجّاي ٦/١) لأنَّ يسوعَ لا يَزال بعدُ ضعيفًا عندكم. غيرَ أنه في أُسلوبِ مريمَ المحبول بها بلا دنس، وبِهذا النوع من التكريم، يشتغلُ المرءُ في النهار، وفي محلٍّ مقدس وقليلًا؛ فلا ليلَ في مريمَ أبدًا، لأنه لم يكنْ فيها قَطُّ أيّةُ خطيئةٍ ولا ظِلٍ. إنها مكانٌ مقدَّس، وقُدسُ الأقداس، حيث يُصاغ القديسون في القالب.

لاحِظوا قولي بأنَّ القديسين يُصاغون كما في قالب، في مريم؛ فهناك فرقٌ كبيرٌ بينَ عملِ صورةٍ بارزةٍ بالمِطرقة والإزميلِ، وبين إخراجِ صورةٍ بإلقائها في القالب. إنَّ النَّحاتين فناني

التماثيلِ، يشتغلون كثيرًا لعملِ صورةٍ في الأسلوب الأول، ويحتاجون إلى وقتٍ كثير. بينما بِالطريقة الأُخرى، يشتغلون أقلَّ جدًّا. ويُسمي القديس أَغُسطينُس مريمَ العذراء قالبَ الله، فيكتبُ: «إذًا، أدعوكِ قالبَ الله، فإنك تستحقين ذلك». إنها القَالبُ الخاصُّ لصياغةِ وصُنعِ آلهةٍ. مَن يُلقَى في هذا القالب، يُصاغُ سريعًا ويصوَّرُ في يسوع المسيح ويسوع فيه. بنفقاتٍ زهيدةٍ وزمنٍ قليلٍ يُصبِح «إلهًا» لأنه أُلقي في عين القالِبِ الذي صاغ إلهًا. إنني أستطيع أن أُشبّهَ أولئك المرشِدين والأشخاصِ الأتقياءِ الذين يريدون صياغةَ يسوع في ذواتِهم وفي الآخَرين بواسطةِ ممارساتٍ غيرِ هذه، بنَحّاتين يضعون ثقتَهم في فنِّهم ومعرفتِهم ومهارتِهم، فيَضربون ضرباتٍ لا تُحصى بِالمطارق والإزميل على حجرةٍ صلبةٍ أو قطعةِ خشبٍ غير نظيفة، ليصنعوا منها صورةً ليسوعَ المسيح، فأحيانًا لا يَنجحون سَواءٌ لعدم معرفتِهم بيسوعَ المسيح كما يجبُ، وسَواء بسببِ قلّةِ الخِبرةِ في الضرباتِ والموضعِ غير الملائمِ، مِمّا يخرِّبُ العمل. أما الذين يتقبَّلون ممارسةَ التكريمِ الحقيقي، فإنني أشبِّهُم بحقٍّ بالسَّبَّاكين وبأصحابِ القوالبِ الذين اختاروا مريم كقالبٍ جميل، صيغَ فيه يسوعُ المسيح طبيعيًّا وإلهيًّا، دونَ الاعتمادِ على مهارتِهم الخاصّة، ولكنْ فقط على جَودةِ القالب؛ فإنهم يُلقون بذاتِهم فيه، ليُصبِحوا صورةً طبيعيةً ليسوع.

يا لَلتشبيهِ الجميلِ الواقعي، ولكن مَن يفهمُه؟ لِنتذكّرْ أَنه لا يُلقَى في القَالبِ إلا ما هو سائلٌ مُذاب، أيْ يجبُ أن تُخرِّبَ نفسَك وتُذيبَها، صورةَ آدمَ القديم، لتُصبحَ أنتَ الجديدُ في مريم.

٧ – يُعطي مجدًا أعظمَ ليسوع المسيح

بالمحافظة على هذه الممارسةِ بأمانةٍ، سنُعطي مجدًا أكثرَ لِيسوعَ المسيح، خلالَ شهرٍ واحد، أكثرَ من أيّةِ عبادةٍ أُخرى، وإنْ كانت أصعبَ ومدةَ سنينَ كثيرة.

لأنك بقيامِكَ بأعمالِكَ بواسطةِ العذراءِ القديسة - كما تُعلِّمُ هذه الممارسةُ - فإنك تترك نيّاتِك الخاصةَ وأشغالَك، وإنْ كانت صالحةً ومعروفةً، لتُذيبَ ذاتَك نوعًا ما في نيّات مريم وأعمالِها، وإنْ كانت غيرَ معروفةٍ من قِبَلك، ولِتشتركَ هكذا في سُموِّ النياتِ الطاهرة التي أَعطت مجدًا لله بأَقَلِّ أعمالِها - كتركيبِ المغزَلِ وغَرزةِ الإبرة - أكثرَ مما أعطاه القديس لورنسو فوق المِشواةِ في استشهاده الغالي، وحتى أكثر من كلّ القديسين بأعمالِهم البُطولية؛ الأمرُ الذي أَكسبَها على الأرض فيضَ نِعَمٍ واستحقاقاتٍ لا تُوصَف. لأنه أسهلُ أن نَعِدَّ النجومِ في السماء

وقطراتِ الماء في البحر،وذراتِ الرَّملِ على الشاطئ، من عَدِّ استحقاقاتِها ونِعَمِها وإعطائِها مجدًا لله أكثرَ من كلِّ ما يُعطيه الملائكةُ والقديسون.

يا لَأُعجوبةِ مريم! إنكِ لَقادرةٌ على عملِ معجزاتِ النعمة في النفوس التي تَفقِدُ ذاتَها فيكِ.

إنَّ النفسَ التي تُمارس هذا التكريمَ، لا تَعتبرُ شيئًا كلَّ ما تُفكرُ فيه أو تعمَلُه من ذاتِها، ولا تستندُ أو تَرضى إلا بِاستعداداتِ مريم، لأجل التَّقدمِ إلى يسوع والتكلم معه، وهكذا فإنها تتواضعُ أكثرَ من النفوس التي تعمَل بذاتِها والمستنِدةِ على قِواها والمُنشرِحةِ بلُطفِ استعداداتِها. نتيجةً لذلك، تُمجِّدُ اللهَ أكثر لأنَّ المتواضعين وصغيري القلبِ يُعطونه مجدًا أكمل.

عندما تأخذُ أمُّنا مريم بيدَيها الطاهرتين وبمحبة عظيمة هَديّةَ أعمالِنا، تُضفي عليها رَونقًا وبهاءً زاهيَين، لتقدِّمَها هي بنفسِها إلى يسوع، لا فقط بلا صعوبةٍ البَتّة ولكن مع مجدٍ أعظمَ مما نُقدّمُها نحن بأيدينا الأثيمةِ.

إنكَ لا تفكر أبدًا في مريم إلا وهي تفكرُ بذلك في الله، ولا تَمدحُها أو تُكرّمُها، إلا وهي معك تَمدحُ وتُكرّمُ الله. فمريمُ هي بجملتها مَوجودةٌ ارتباطًا بالله، حتى أقدر أن أُسمِّيَها «عَلاقةُ الله». فليستْ هي إلَّا بالنَّظر إليه، أو هي بالأحرى صدَى الله، تُردِّدُه وتُكرِّرُه. فإذا قُلتَ مريم، هي بدورها تقولُ: الله. تَمدحُها القديسةُ أليصابات وتدعوها مغبوطةً، لأنها آمنَت. أما هي فَكَصدًى أمينٍ لله، فتنشدُ: تُعظمُ نفسي الرّبَّ (لوقا ١/٤٦). إنَّ ما عَمِلَتْه مريم في هذه المناسبة، تَعملُه كلَّ يوم. فعندما يَمدحونها ويُحبونها ويُكرمونها، أو يُقدمون شيئًا لها، فيكونُ الله هو الممدوحُ والمحبوبُ والمكرَّمُ بواسطةِ مريم وفيها.

ثامنًا- ممارساتٌ خاصّةٌ بهذا التكريم

الممارساتُ الخارجية

رَغمَ أنَّ الأساسَ في هذا التكريم هو شيءٌ باطنيّ، ومع ذلك فله أيضًا عِدّةُ ممارساتٍ خارجيةٍ لا يَجبُ إهمالُها: «هذه يجبُ عملُها، وتلكَ عدمُ إهمالِها» (متى ٢٣/٢٣). لأنَّ الممارساتِ الخارجية المعمولة جيدًا تُساعد الباطنيةَ وتُذكِّرُ الإنسانَ الذي يُقاد دائمًا من الحَواس، بالشيء الذي عَمِلَه ويجبُ أن يَعملَه؛ وأيضًا لأَنها صالحة لبُنيان القريبِ الذي يراها، الأمرُ الذي لا تعملهُ الممارساتُ الباطنية. فلا يَقُلْ إذًا أَيُّ دُنيويٍّ أو ناقدٍ بأنَّ هذه الممارسة هي في القلب، ويجبُ أن تَتجنّبَ كلَّ ما هو خارجي، كيلا يَصيرَ فيها تَعجرُف، ولهذا يجب إخفاؤها. أُجيبُ هؤلاء مع مُعلِّمي يسوع: لِيَرَ الناسُ أعمالَكم الصالحةَ ويُمجِّدوا أباكم السماوي (متى ١٦/٥). إنّنا لا نعملُ أعمالنا وممارساتِنا الخارجيةَ، كما يقولُ القديسُ غُريغوريُس، لنُرضيَ الناسَ ونَحصلَ على مديحِهم، فهذا كبرياءٌ؛ ولكن نعملُ أحيانًا أمامَ الناسِ لإرضاءِ الله ولتمجيدِه، ودونَ الاهتمامِ بذَمِّ الناس أو مدحِهم.

١ – التكريسُ بعدَ الممارسات التمهيدية

من يُريدُ ممارسةَ هذا التكريم عليه أن يقضيَ أقلَّهُ اثنَي عشرَ يومًا، لإفراغِ روحِ العالمِ عن نفسِه، هذا الروح المخالف ليسوع المسيح، ومستعملًا ثلاثة أسابيع أُخرى للامتلاء منه بواسطةِ مريم أمِّه، حسبَ هذا الترتيب: يستعملُ في الأسبوع الأول صلواتِه وممارساتِه التَّقَويّةَ لنيلِ معرفةِ النفسِ والتوبةِ عن الخطايا وعملِ كلّ شيء بروحِ التواضع والتأملِ - بحسب ما ذكرتُهُ عن عمقِنا الرَّديء والنظر إلى الذات كما إلى بَهيمةٍ بليدة - متأمِّلًا في كلمات القديس بِرنار: «كنتَ قليلًا من الوَسَخ، ولا زِلتَ قليلًا منه وستَكون مرعًى للدود». ليُصَلِّ إلى الرب وروحِه القدوس لينيرَه، قائلًا: «يا ربُّ أن أُبصِر» (لوقا ٤١/١٨)، أو «لأعرفَ ذاتي» (القديس أَغُسطينُس). أو «هلُمَّ أيها الروحُ القدس»، مُردِّدًا كلَّ يوم طِلبةَ الروحَ القدس والصلاةَ التابعة، ومُلتجِئًا إلى العذراء الطاهرة، طالبًا هذه النعمة العظيمة التي هي أساسُ البقية، ومُصلِّيًا: السلامُ عليك يا نجمةَ البحر. . .».

في الأسبوع الثاني، ليحاولْ في كلِّ صلواتِه وأعمالِه اليوميةِ التَّعرفَ على العذراء الطوباويةِ طالبًا ذلك من الروح القدس، ومصلِّيًا ما ذكرْتُ سابقًا بالإضافة إلى مسبحةِ الوردية،

على هذه النية. ومِثلُهُ في الأسبوع الثالث، كي يَتعرَّفَ على يسوع المسيح مع الممارسات السابقة؛ ثمّ يَتلو في نهايتها صيغةَ التكريسِ التي يكون قد كَتَبها وأعدّها.

يُستحسَنُ بأن يُقدِّمَ في ذلك اليوم عملَ توبةٍ ليسوعَ ولمريم، تكفيرًا عن عدم أَمانتِه الماضية لِالْتزامِهِ في المعمودية ولإظهارِ خضوعهِ لهما، مثلَ صومٍ أو صدقةٍ أو شمعةٍ وغيرِ ذلك، يُشيرُ بها إلى محبته نحوهما. ولْيجدِّدْ تكريسَه هذا كلَّ سنة في اليومِ عينِهِ، محافظًا على نفس الممارسات لثلاثة أسابيع، لا بل يُفضَّلُ أنّ يجدِّدَ كلَّ شهرٍ، وحتى كلّ يومٍ، تكريسَه بهذه الكلماتِ الوجيزة: «إنني بجُملتي لكَ، وكلَّ ما هو لي هو لكَ، يا يسوعُ الحُلو، بواسطة مريمَ أُمِّك القديسة».

٢ – تِلاوةُ المسبحة الصغيرة

تتألفُ هذه المسبحةُ من «أبانا الذي» ثلاثَ مرّاتٍ مع اثنتَيْ عشْرةَ مرةً «السلامُ لكِ» تُتلى إكرامًا لاثنَيْ عشَرَ امتيازًا للعذراء الطاهرة. وتَستندُ هذه الممارسةُ على رؤيا القديس يوحنا للمرأة المتلحِفةِ بالشمس المُكَلَّلة باثنَيْ عشَرَ كوكبًا والقمر تحت قدمَيْها (رؤيا ١٢/١)؛ إذ يرى القديسون فيها، رمزًا للعذراء مريم، وتُصلَّى هكذا: [١) نؤمن بإلهٍ. . . ٢) أبانا الذي ٣) أربع مرات: السلام لكِ ٤) المجدُ للآب]: هذه مَعًا ثلاثَ مرّاتٍ، ثمّ «تحت كَنَف حمايتِكِ».

٣ – تعبُّدٌ عميقٌ لسرِّ التَّجسد

إنَّ التعبُّدَ الخاصَّ لسرِّ تجسدِ الكلمةِ يومَ ٢٥ مارِس/ آذار كما أَوصى به الروح، يُعلِّمنا أولًا أن نُكرِّمَ ونقتدي بخضوع الله الابنِ لمريمَ، هذا الخضوع غيرِ القابل لِلوصف الذي قَبِلَهُ لتمجيد الله أبيه، لأجل خلاصِنا. فيَظهر يسوع كأسيرٍ وعبدٍ في أحشاء مريم المحبوبة. يُعلِّمنا كذلك أنْ نشكرَ الله على النِّعم الفريدة التي أغدقَها على مريم بانتخابِهِ لها لتكونَ أُمَّه الجديرةَ بالاحترام. هاتان هما الغايَتان الرئيسَتان من العبودية ليسوعَ المسيح بواسطة مريم. فالأفضل استعمالُ عبارةِ عبيدِ يسوع، أَحرى من عبيدِ مريم، كيلا نُعطي مأخذًا لبعضِ المنتقِدين. وبالحقيقة لأنَّ غايتَنا هو يسوع المسيح، أمّا مريم فهي الطريق الموصلُ غليه. ولهذا نوصي بهذه الصلاة التي كان يتلوها رجالٌ عظامٌ وهي: «يا يسوعُ الحيّ في مريم، تعال واحْيَ فينا، بروح قداستِك. . .»

إنَّ هذا الكلام يُظهِرُ الاتحادَ المتينَ بين يسوع ومريم. إنَّهما مُتّحِدان بِشَكلٍ وثيق، حتى إنَّ الواحدَ هو في الآخَر: يسوع هو كلُّه في مريم، ومريم هي كلُّها في يسوع، أو بالأحرى ليست هي بعد، ولكنه يسوع وحده هو فيها، إنه لأسهل أن نَفصلَ النور عن الشمس، من فصل مريمَ عن يسوع، لذا يُمكن إعطاءُ هذه التسميةِ: يسوع لمريم، أو أيضًا: مريم ليسوع.

لا يَسمَحُ الوقتُ بالتوقف هنا لشرح سمو وعظمةِ سر يسوع الحي والمالك في مريم، أيْ سرِّ تجسد الكلمة. إني أَكتفي بالقول بأَن لنا هنا السرَّ الأول ليسوعَ المسيح، السرَّ الأكثر خفاءً وسموًّا والأقل إدراكًا؛ فإنَّ يسوعَ في هذا السر، بالاتّفاق مع مريم، ظهَرَ في أحشائها - التي يُسميها القديس أمبروسيُس: «غُرفة أسرارِ الله» -، قد اختارَ كلَّ المنتخَبين وقام بجميع أسرار حياتِه التي توالَتْ بعدَه، بقَبوله إياها عندَ دخوله العالم، إذْ قالَ: «هاأنذا آتٍ يا الله لأعملَ بمشيئتِك» (عب ٩/١٠). نتيجةً لذلك، فإنَّ هذا السر هو مختصَرُ كلِّ الأسرار، الذي يَحوي إرادةَ ونعمةَ بقيةِ الأسرار، لأنه عرشُ الرحمةِ والجودةِ ومجدِ الله.

هو عرشُ الرحمة، لأنه لا يمكنُ الاقترابُ من يسوع إلا بواسطةِ مريم، ولا رؤيتُه ولا مكالمتُه إلا بها، ويسوعُ الذي يستجيبُ دومًا لِأُمِّه العزيزة، يمنحُ بواسطتها نعمتَه ورحمتَه للخطأة المساكين، «فلنذهبْ بثقةٍ إلى عرشِ النِّعمة» (عب ٦/٤). هو عرشُ جودتِه، لأنَّ آدمَ الجديدَ الذي سكَن هذا الفردوسَ الأرضيَّ الحقيقي، قامَ وهو فيه بأعاجيبَ خفية، لا يفهمُها لا الملائكةُ ولا البشرُ قَطُّ؛ ولهذا يُسمي القديسون مريمَ «جلالَ الله»، كما لو أنَّ الله ليس عظيمًا إلَّا في مريم، «فقط هناك الربُّ هو عظيم» (أشعيا ٢١/٢٣).

وهو عرشُ مجدِ أبيه، لأنَّ يسوعَ في مريمَ يُسَكِّنُ غَضَبَ أبيه على البشر، بِشَكلٍ كاملٍ، ويُعوّض تمامًا عن المجدِ الذي أزالَته الخطيئةُ؛ وبواسطة ذبيحةِ إرادتِه أعطى له مجدًا أكثرَ من كلّ المُحرَقاتِ البشريةِ القديمة؛ وبكلمةٍ يسوع في مريم يَهَبُ لأبيهِ مجدًا لامُتناهٍ، لم يَلقاهُ من أيِّ إنسانٍ قَطُّ.

٤ – محبةٌ كبيرةٌ لتلاوةِ السلامِ الملائكي.

سيكونُ لأَصحابِ هذا الإكرام، محبةٌ كبيرةٌ لتِلاوة «السلام لكِ»، أو قليلون هم المسيحيون - حتى المنوَّرون منهم - من يعرفُ قيمةَ وسموَّ وضرورةَ هذه الصلاة. لذلك التزَمَتِ العذراءُ مريمُ بأن تَظهرَ مرارًا لقديسين كبارٍ متنوِّرين، لتُبَيِّنَ لهم قيمتَها، كما فعلَتْ مع القديسَين عبدِ الأحد ويوحنا من كاپِسْتْران، والطوباوي ألان من روپ. فأَلَّفوا كتبًا كاملةً عن عجائبِ ومفاعيل هذه الصلاة لهدايةِ النفوس، وأذاعوا عاليًا ووعظوا جَهْرًا بأنَّ خلاصَ العالم، إذِ ابتدأ بواسطة «السلامُ لكِ»، فإنَّ خلاصَ كلِّ فردٍ متعلِّقٍ بهذه الصلاة التي حملت ثمرةَ الحياةِ إلى هذه الأرض اليابسة القاحلة. وإذا ما تُلِيَت هذه الصلاةُ جيدًا، فستُنبِتُ في نفوسِنا كلمةَ الله، وتحملُ ثمرةَ الحياة التي هي يسوعُ المسيح. «فالسلامُ لك» ندًى سماويٌّ يَسقي الأرضَ - أعني النفسَ - لتحملَ إليها ثمرتَها في أوانِها؛ وإنَّ النفسَ غيرَ المَسقيّةَ بهذا الطَّلِّ السماوي لا تحملُ البتَّة ثمرةً، ولا تُعطي إلَّا حَسَكًا وشوكًا، وهي قريبةٌ من نَيلِ اللَّعنة (عب ٦/٨).

جاء في كتاب الطوباوي ألان من روپ، «سُمُوُّ المسبحة»، بأنَّ العذراءَ المبارَكةَ أَوحت إليه قائلة: «اِعلَمْ يا ابني، واشْهِرْهُ لِلمَلأ بأنَّها علامةٌ محتملةٌ وقريبةٌ للرَّذلِ الأبديّ، أن تكونَ للإنسان كراهيةٌ وفتورٌ وإهمالٌ في تلاوة السلامِ الملائكي، الذي عوَّض عن كلّ العالم. إنَّها كلماتٌ معزِّيةٌ جدًّا، ورهيبةٌ أيضًا، وبالكاد تُصدَّقُ، لو لم يكن لنا كُفَلاء بها أمثالُ هذا الرجل القديس، وقبلَه القديس عبد الأحد، وبعدَه كثيرٌ من الشخصيات الكبيرة وخِبرةُ أجيالٍ عديدة.

لقد لوحِظ بأنَّ الذين يحمِلونَ علاماتِ الرَّذلِ، مثل جميعِ الهراطقة، والكَفَرةِ والمتكبرين ومحبِّي العلم، يُبغِضون ويَحتقِرون «السلامُ لكِ» والمسبحة، التي هي هَولُهم، ويُفضّلون أفعى أَحرى من مسبحة. كذلك المتعجرفون - وإنْ كانوا كاثوليك – فإنّ لهم الانحرافاتُ عينُها التي لأبيهم لوسيفورُس ، يحتقرون أو أقلَّه ليس لهم إلَّا اللامبالاة «للسلام لك» وينظرون إلى المسبحة كما إلى إكرامٍ صالحٍ للنساء قليلاتِ الذكاءِ، وكأنّها جيدة للجُهَّال الذين لا يعرفون القراءةَ. وظَهَرَ بالاختبار بأنَّ الذين لهم علاماتٌ كبيرةٌ للاختيار الإلهي، يُحبّون ويَتذوقون ويَتلون بِلَذّةٍ «السلام لك»، وكلَّما كانوا أكثر لله، كلَّما يُحبون هذه الصلاةَ أكثر، هذا ما قالَته العذراءُ القديسة أيضًا للطوباوي ألان.

لا أعرفُ كيف يَحدُثُ ذلك ولا لماذا. ومع ذلك فإنه لَأمرٌ حقيقيٌّ، وليس لي وسيلةٌ أفضل لأعرفَ ما إذا كان شخصٌ من الله أو لا، إلّا بفَحصِه بخصوص ما إذا ما يُحبُّ تلاوةَ «السلام لك» والمَسبحة. أقول: يُحبُّ، لأنه ربما قد يكونُ هناك شخص لا يستطيعُ طبيعيًّا أو أدبيًّا أن يتلوها، لكنه يحبُها ويَحُثُّ الآخَرين على ذلك.

أيتها النفوسُ المختارة منذُ الأزل، يا عبيدَ يسوع في مريم، اِعلموا أنَّ «السلام لكِ» هي أجملُ كلِّ الصلواتِ بعد «أبانا الذي»، وهي أكملُ تهنئةٍ يمكنُ تقديمُها لمريم، لأنها تهنئةُ العَليّ التي حَمَلها أحدُ رؤساءِ الملائكةِ لجَذْبِ قلبِها، وأحبَّتْها للغاية لتأثيرِها الخَلّاب الخفيّ حتى إنها أعطتْ رضاها بتجسيدِ الكلمة، رغمَ تواضعِها العميق؛ فبِتلاوتِها كما يجب، يمكنُك كَسْبُ قلبِها أكيدًا.

إنَّ صلاةَ «السلام لك» عندما تُتلى جيدًا، أيْ بانتباهٍ وتقوى واحتشام، هي حَسبَ القديسين، عَدُوّةُ الشياطين التي تَهزمُهم، والمِطرقةُ التي تَسحقُهم. فهي تقديسٌ للنفس وفرحٌ للملائكة، ونغمةُ المختارين، وأنشودةُ العهدِ الجديد، ولذّةُ لِمريمَ ومجدٌ لِلثالوثِ الأقدس. «السلامُ لكِ» ندَى السماءِ المُخصبِ للنفس، وقُبلةٌ طاهرةٌ حُبّيّةٌ لمريم، وزهرةٌ قِرمِزيةٌ تُهدَى لها، ولؤلؤةٌ ثمينةٌ تُقدَّم لها، وقَدَحٌ من العَنبر ومِن الرَّحيقِ الإلهي يُرفع إليها. هذه تَشابيهُ من القديسين.

أرجو بإلحاحٍ، بالمحبةِ التي أَكِنُّها لكم بيسوعَ ومريم، أنْ لا تَكتفوا بتلاوة المَسبحة الصغيرة، ولكن إذا كان لديكم الوقتُ صلوا المَسبحة كلَّها بأقسامها الثلاثة، كلَّ يومٍ، وستبارَكون ساعةَ موتِكم. اليومَ والساعة التي فيها صدَّقتموني، وبعدَ أن تكونوا قد زرَعتم ببركاتِ يسوع ومريم، سوف تَحصُدون البركاتِ الأبدية في السماء (٢ كور ٦/٩).

٥ – نشيد «تُعظِّم نفسي»

من يُكرِّمُ العذراءَ القديسة، عليه أنْ يشكُرَ الله على النِّعم التي أغدَقَها عليها، بتلاوته مِرارًا نشيدَ «تُعظِّم نفسي»، على غِرارِ القديسين الكثيرين. إنَّها الصلاةُ الوحيدةُ التي من تأليفِ العذراءِ القديسة، أو بالأحرى التي عَمِلَها يسوع بواسطتِها، لأنه هو الذي كان يتكلمُ فيها. فهي أعظمُ ذبيحةِ حمدٍ اقتبَلها الله في شريعةِ النعمة. إنه النشيدُ الأكثرُ تواضعًا والأكثرُ عِرفانًا بالجَميل. لا بل الأسمى والأعظم، وفيه أسرارٌ كبيرةٌ خفيّةٌ حتى عن الملائكة.

كانَ جِرسُن الوَرِعُ العَلّامة، بعد أن استعملَ قسمًا كبيرًا من حياته في وضعِ مؤلَّفاتٍ مملوءةٍ عِلمًا وتَقوى، عن أصعبِ المواضيع، شَعَر برَجفةٍ فقط في نهاية حياتِه، عندما بدأ يشرح نشيد «تُعظّم نفسي»، ليُكلِّل كلَّ تأليفه. ويذكرُ في كتابٍ ضخم أنه قد كتب أشياءَ عجيبةً لهذا النشيدِ البديع، حيث يقول بأنَّ العذراءَ الكلِّيةَ القداسة كانت تتلوه كلَّ يومٍ مِرارًا عديدة، لا

سيما بعدَ التناول المقدس كفِعلِ شكر. ويسردُ بِنزونيو العالِم في شرحه لهذا النشيد، «صنعَ الغلبةَ بذراعه وبدَّدَ المتكبرين بفِكر قلوبِهم» (لوقا ١/٥١).

٦ – احتقارُ العالم

على محبي مريم الأمناء أن يحتقروا العالَمَ الفاسد كثيرًا، وأن يُبغضوه ويَهربوا منه.

في الممارسات الباطنيةِ الخاصّة بِراغبي الكمال

بالإضافة إلى الممارساتِ الخارجية التي أتيتُ على ذِكرها، والتي لا يجبُ تركُها عن إهمالٍ أو احتقار- قدْرَ ما تسمحُ حالةُ كلّ واحدٍ وظروفُه -، أُقدّمُ ممارساتٍ باطنية مقدسة كثيرًا لأولئك الذين يدعوهم الروحُ القدس إلى الكمال.

وأُلخصُها بهذه الكلمات الأَربع: أن نعملَ كلَّ أعمالنا بواسطةِ مريم، ومع مريم، وفي مريم، ولأجل مريم، لكي نعملَها بِشَكلٍ أكملَ بواسطةِ يسوعَ، ومع يسوع، وفي يسوع، ولأجلِ يسوع.

١ – أنْ نعملَ بواسطةِ مريم

أي يجبُ طاعةُ مريمَ في كلّ شيء، والانقيادُ لروحِها الذي هو روحُ الله القدوس. فمن يقودُهم روحُ الله، هُمْ أبناءُ الله (روم ٨/١٤)، ومن يقودُهم روحُ مريمَ هم أبناءُ مريم، وبالنتيجة أبناءُ الله.

بينَ المكرَّسين الكثيرين للعذراء مُحِبّون حقيقيون وأُمناء، يقودهم روحُها، الذي قلت إنه هو روحُ الله. لأنها لم تَنْقَدْ بروحِها الخاص قَطُّ، بل دائمًا بروحِ الله المسيطِر عليها كُلِّيًّا حتى أصبحَ روحُها. لذا يقولُ القديسُ أمبروسيُس: «لتكنْ في كلّ واحدٍ نفسُ مريم تُعظّمُ الله، ليكن في كلّ واحدٍ روحُ مريمَ ليفرحَ بالله».

كم تكون سعيدةً تلك النفسُ التي على مثال الأخِ رودريكِس اليسوعي (أعلن بعد ذلك قديسًا في ١٨٨٨) هي ممتلَكةٌ ومُحرَّكة من روحِ مريم، الذي هو روحٌ وديعٌ وقويّ، غيورٌ وفَطِنٌ، متواضعٌ وشجاعٌ، نقيٌّ وخَصيب.

ولكي تنقادَ النفسُ لروح مريمَ، لا بُدَّ من التَّخلّي عن الروح والأنوار والإرادة الخاصة، مَثلًا قبلَ القيام بالصلاة، أو الاشتراكِ بالقداس، أو التناولِ... الخ، لأنَّ ظلماتِ روحِنا وخُبثَ إرادتِنا الخاصّةِ وأعمالنا التي إذا تبِعناها - وإنْ ظهرَت لنا صالحةً - فإنها تُعرقلُ روحَ مريم القدوس.

لذا يجبُ الاستسلامُ لروح مريم، لنُحرَّكَ منه وننقادَ بِه، كما هي تريد. لنضعْ ذاتَنا بين يديها البتولية كآلةٍ صَمّاء بين يدَيْ مُشغِّلِها، أو كنايٍ بيدِ عازفٍ حاذق. يجبُ فقدانُ شخصيتِنا لنتركها لها كحَجَرةٍ تُلقَى في البحر، الأمرُ الذي يَتِمُّ فورًا بنظرةٍ روحية إليها، أو بحركة صغيرة إرادية، أو شفهيًا قائلين: أتخلى عن نفسي وأقدمُها لكِ يا أمي الحبيبة، ورغمَ أننا لا نشعرُ بأيةِ حلاوةٍ حِسّيّةٍ في هذا العملِ الإرادي، إلّا أنه حقيقيٌّ ومقبول.

ثم من وقتٍ إلى آخَر، نجددُ أثناءَ عملِنا وبعدَه، فعل التقدمةِ والاتحاد؛ وعلى قدْر ما نعمَلُه، فإننا نتقدسُ أكثرَ فأكثرَ، ونصِلُ أسرعَ إلى الاتحاد بيسوع المسيح، لأنه يتبعُ دائمًا بِالضَّرورة الاتحادَ مع مريم. لأنَّ روحَ مريمَ هو روحُ يسوع.

٢ – أَن نعملَ مع مريم

أي يجبُ أن ننظرَ إلى مريمَ كما إلى مثالٍ كامل لكلِّ فضيلةٍ في أَعمالنا. هذا المثالُ الذي صاغَهُ الروحُ القدس في خليقةٍ لكي نَقتديَ به حَسَبَ طاقتِنا الضعيفة؛ إذْ ننظرُ في كلّ عملٍ إلى مريم، كيف عمِلَته أو كانت سَتَعملُه لو كانت مكانَنا. لذا يجبُ أن نفحَصَ ونتأملَ الفضائلَ الكبيرةَ التي مارسَتْها في حياتها، خاصة:

أ – إيمانُها الحي، الذي بواسطتِه آمنَتْ دونَ تَردُدٍ بكلمةِ الملاك؛ آمنَتْ بأمانةٍ وثباتٍ حتى تحتَ أقدامِ الصليب، فوقَ الجُلجلة.

ب – تواضُعُها العميقُ الذي جعلَها أن تختفي وتسكُتَ وتخضَعَ لكلِّ شيء وتجلسَ آخِرَ الكُل.

ج – طهارتُها الساطعةُ التي لم يَصِرْ لها نَظير. وهكذا في كلّ فضائِلها الأخرى. لِنَتذكرْ بأنَّ مريمَ هي قالِبُ الله الكبير والوحيد واللائق بعملِ صوَرٍ حية لله، بنَفقاتٍ قليلةٍ وفي زمنٍ قصير، وأنَّ النفسَ التي وجدَتْ هذا القالب وتَفقِدُ ذاتَها فيه، تتغيرُ سريعًا في يسوع المسيح الذي طبيعيًّا يُمثِّلُه هذا القالب.

٣ – أن نعملَ في مريم

لأجل فَهم هذه الممارسةِ جيدًا، لا بُدَّ من معرفة أنَّ العذراءَ القديسةَ هي الفِردوسُ الأرضيُّ لآدمَ الجديد، وأنَّ الفِردوسَ القديمَ لم يكنْ إلّا رمزًا له لا غير. في هذا الفردوس، غِنًى وجمالٌ وأشياءُ نادرة وملذاتٌ لا توصَف، تركها فيه آدمُ الجديد – يسوع - الذي فيه طابَ له المَقام مدَّة تسعةِ أشهُرٍ، عَمِلَ فيه آياتٍ مُظهِرًا غِناه بأُبَّهةٍ إلهية.

يتألفُ هذا المكانُ المقدسُ من أرضٍ بِكرٍ طاهرة، صيغَ فيها آدمُ الجديد وتَغذّى، دون وصمةٍ ولا شائبة، بقوةِ الروحِ القدس الحالِّ فيه. في هذا الفردوس، تجدُ شجرةَ الحياة الحقيقية، التي حملت يسوعَ المسيح، ثمرةَ الحياة، وشجرةَ معرفةِ الخيرِ والشر، التي أَعطتِ النورَ للعالم. في هذا المحلِّ الإلهي، توجد أشجارٌ مغروسةٌ من الله، ومَسقيّةٌ من عُذوبتِه، لا زالت تحمِلُ كلَّ يومٍ ثمارًا ذاتِ نكهةٍ إلهية. فيه حدائقُ مُزدانةٌ بورودٍ جميلةٍ، مختلفةِ الفضائل تُعطِّرُ حتى الملائكة. فيه مروجٌ خضراء للرَّجاء، وحُصونٌ مُحصَّنةٌ وبيوتٌ خَلّابة تَمنح الثقةَ؛ والروحُ القدس فقط يقدر أن يكشفَ الحقيقة المُستتِرة خلفَ هذه الأمورِ المادّيّة.

في هذا المكانِ هواءٌ نقيّ بلا عَدوَى ونهارٌ رائعٌ بلا ليل للبشرية المقدسة، وشمسٌ ساطعةٌ دون ظِلٍّ لِلّاهوت، أتونٌ مضطرِمٌ ودائمُ المحبةِ يَستعِرُ فيه الحديدُ ويتحوَّلُ إلى ذهبٍ، وفيه نهرٌ للتواضعِ يَتدفّقُ من الأرض ليسقيَها، ينقسمُ إلى أربعةِ فروعٍ، هي الفضائلُ الرئيسية الأَربعة.

يدعو الروحُ القدسُ بفمِ الآباءِ القديسين، العذراءَ القديسة: ١) الباب الشرقي الذي يدخلُ منه ويخرجُ الحَبرُ الأعظم يسوعُ المسيح إلى العالم (حزقيال ٤٤/٢-٣). دخلَ المرة الأولى بواسطتها، وسيأتي مرةً أخرى أيضًا هكذا، ٢) إنّها هيكلُ اللاهوتِ وموضعُ راحةِ الثالوثِ الأقدس، فهي عرشُ الله ومدينتُه ومذبحُه وهيكلُه وعالمُه. كلُّ هذه الصفاتِ المختلفةِ والإطراء هي حقيقيةٌ تمامًا، نَظرًا إلى المعجزات المختلفةِ التي فَعَلها العليُّ في مريم.

يا لَلغِنى ويا لَلمجد ويا لَلَّذة! يا لَسعادةِ الإنسان إذْ هو يَقدر على الدخول والمكوث في مريم، حيث وضع العليُّ عرشَ مجدهِ الأعظم. كم هو صعبٌ لخطأةٍ مثلِنا الحصولُ على السماحِ والقدرةِ والنورِ لا للدخول إلى موضعٍ كذا عالٍ ومقدَّسٍ، محروسٍ ليس من كاروبيم كما كان الفِردوسُ القديم (تك ٣/٢٤) ولكن من الروح القدس ذاتِه الذي صار السيدَ المطلِقَ عليه كما قال: «بستانٌ مغلَقٌ هي أختي، عروستي، بستانٌ مغلَقٌ ويُنبوعٌ مختوم» (نشيد ٤/١٢). فمريم هي

مغلَقةٌ، مختومةٌ، وأبناءُ آدم وحواء التعيسون المطرودون من الفِردوس، لا يقدرون أن يدخلوها إلّا بنعمةٍ خاصة يستحقونها من الروح القدس.

فبعدَ قَبول هذه النعمةِ الساميةِ، على المرءِ البَقاءُ في باطنِ مريم البديع، عن طيبِ خاطرٍ، وأن يستريحَ فيه بسلام، مستندًا إليه بثقةٍ، ومختفَيًا فيه كما في مأمن، ليَفْقدَ فيه ذاتَه بلا تَحفُّظ، حتى يتغذَّى في هذا الحشا البتولي، من حليبِ النعمةِ ورحمتِها الوالدية، ويتخلَّص من قلقِه ومخاوفِه ووساوسِه، وينجوَ من كلّ أَعدائِه، أي الشيطان والعالمِ والخطيئة. لذا نقولُ بأنَّ الذين يَدخلون إليها لا يُخطِئون البَتّة (سيراخ ٢٤/٣٠)، أيْ أولئك الذين يسكنون فيها بالروح لا يرتكبون خطيئةً كبيرة قَطُّ، ويُصاغون في يسوع وهو فيهم، لأنَّ حشاها كما يقولُ الآباءُ هو «غرفةُ الأسرار الإلهية» ، حيثُ صنعَ يسوع كلَّ المختارين: «وُلد منها إنسانٌ وإنسان» (مز ٨٧(٨٦)/٥).

٤ – أن نعملَ لأجلِ مريم

أخيرًا علينا أن نفعل كلَّ أعمالِنا من أَجل مريم، لأنه إذا سلَّمْنا ذواتِنا بجُملتها إلى خدمتها، فمن العدل أن نعملَ كلَّ شيء لأجلها كما يفعلُ كلُّ خادمٍ أو عبدٍ، لا لأنها هي غايتُنا الأخيرة - إذْ هذه هي يسوع المسيح وحده - ولكن كغايةٍ قريبةٍ، ووسيطٍ سِرّيّ ووسيلةٍ سهلةٍ للبلوغ إليه هو. هكذا لا نَبقى بطَّالين، بل كعبدٍ صالح وخادم أمين، نقومَ بعملِ أشياء كثيرة لهذه الملكةِ السامية، مستنِدين إلى حمايتها. فنحامي عن امتيازاتها عندما يُجادِلون عليها، وندافعُ عن مجدِها عندما يُهاجَمُ، ونَجذُب كلَّ العالمِ - إنْ أمكنَ - إلى خدمتِها وممارسةِ الإكرامِ الحقيقي لها، ونَتكلّمِ ونَصرخ ضدَّ أولئك الذين يُسيئونَ استعمال إكرامِها لإهانةِ ابنِها، وفي الوقتِ عينِهِ نُثبِّتُ الإكرامَ الحقيقيَّ. ولا نُطالبُها من أجل خَدماتِنا هذه الصغيرة، إلّا بشرفِ الانتماءِ إلى أميرةٍ هكذا محبوبة، وبِسعادةِ الاتّحادِ بواسطتها بِابنِها يسوع، برباطٍ لا يَقبلُ الانفصام، لا في الزمن ولا في الأبدية.

المجدُ ليسوعَ في مريم
المجدُ لمريمَ في يسوع
المجدُ لله وحدَه.

فِهرِس

+ مقدمة ٢

(المطران كوركيس كرمو- رئيس أساقفة الموصل على الكِلدان)

+ الفصل الثامن من الدُّستور العَقائديّ حول الكنيسة «نورٌ لِلأُمم»: (من المَجمع الڤاتيكاني الثاني)

الطوباوية مريمُ العذراء أمُّ الله

في سرِّ المسيح والكنيسة ٥

١ – تمهيد ٥

مريمُ العذراء في سرِّ المسيح ٥

مريمُ العذراء والكنيسة ٦

ما يَهدِفُ إليه المَجمع ٧

٢ – العذراءُ الطوباوية ومُهمّتُها في تدبير الخلاص ٨

أُمُّ المسيح في العهدِ القديم ٨

مريم في البشارة ٩

العذراء مريم وطفولة يسوع ١١

العذراء مريم وحياةُ المسيح العَلَنية ١٢

العذراء مريم بعد الصُّعود ١٣

٣ – العذراء الطوباوية والكنيسة ١٣

مريم أَمَةُ الرَّب ١٣

مريم قُدوةُ الكنيسة ١٦

فضائل مريم قُدوةٌ لِلكنيسة ١٧

٤ – تكريمُ العذراءِ الطوباوية في الكنيسة ١٩

تكريمُ العذراء: طبيعتُه وأَساسُه ١٩

كيفية تكريمِ العذراء والكلام عنها ٢٠

٥ – مريم آيةُ الرجاءِ الأكيد والعزاء لشعبِ الله في غُربته ٢١

+ مُقدمةُ المؤلّف ٢٣

أوّلًا- ضرورة تكريمِ العذراء مريم ٢٩
أ- في استخدام مريم عند التَّجسُّد ٢٩
ب- في إرادةِ الله استخدامَ مريم في تقديسِ النفوس ٣٣
ج- مريمُ مَلِكةُ القلوب ٤٢
د- ضرورةُ مريم للخلاص عُمومًا ٤٣

هـ- في أَنَّ إِكرامَ العذراء هو أَكثرُ ضرورةً
للمَدعوّين إلى حالةِ الكمال الخُصوصية ٤٥
و- العذراء مريم والأَزمنةُ الأَخيرة ٤٩
ز- في رُسُلِ الأزمنة الأخيرة ٥٤
ثانيًا- حقائقُ أَساسيةٌ عن تكريم مريم ٥٨
١- يسوع المسيح هو الغايةُ الأخيرة من تكريم مريم ٥٨
٢- في عُبوديّتِنا ليسوعَ المسيح ولمريمَ ٦٥
٣- في إِخلاء ذاتِنا من كلِ ما هو رديءٌ فيها ٧١
٤- في حاجتِنا إلى وسيط
لدى يسوعَ المسيح الوسيطِ بالذات ٧٤
٥- في صعوبة المحافظة على النِّعَم والكنوزِ المقتبَلة من الله ٧٦
ثالثًا- في اختيارِ الإكرامِ الحقيقي للعذراء مريم ٧٨
في علامات التكريم الباطل والحقيقي ٧٩
١- المُصَلّون المنتقِدون ٧٩
٢ – المُتعبِّدون الوَسواسيون ٨٠
٣ – المصلون الظّاهريّون ٨٢
٤ – المُصَلون المُعتَدّون بذواتِهم ٨٣
٥ – المصلون المتقلّبون ٨٦
٦ – المصلون المُراؤون ٨٧
٧ – المصلون ذَوو المَصالح ٨٧
رابعًا- الإكرامُ الحقيقي للعذراء مريم ٨٩
١ – هو إكرامٌ باطنيّ ٨٩

٢ – هو إكرامٌ رقيق ٨٩
٣ – هو إكرامٌ مقدَّس ٩٠
٤ – هو إكرام ثابت ٩٠
٥ – هو إِكرام مُتجرِّد ٩١
في ممارسة الإكرام الحقيقي لمريم العذراء ٩٣
١ – الممارساتُ العامّة ٩٣
٢ – الممارساتُ الخاصّة الكاملة ٩٧
في طبيعة الإكرام الحقيقي للعذراء مريم
أو في التكريس التامّ ليسوع المسيح ٩٨
١- في تكريس النفس التامّ والكامل لمريمَ العذراء ٩٩

٢- في أنّ هذه الممارسة هي تجديدٌ كامل لمواعيدِ المعمودية المقدَّسة ١٠١
خامسًا- في الأسباب التي تدعونا إلى هذا التكريم ١٠٧
١- إنّ هذا التَّكريم يَعهَدُنا بِجُملتِنا إلى خدمةِ الله ١٠٧
٢- إنّه بِهذه الحِكمة اللامُتناهية خَضع لِأُمِّه العذراء مُدّةَ ثلاثين سنة ١٠٩
٣ – إنَّ هذا الإكرامَ يَمنحُنا عطفَ مريمَ وحبَّها ١١٢
٤ – بهذا الإكرام نعطي لله مجدًا أَعظم ١١٦
٥ – إنَّ هذا التكريم يؤَدّي إلى الاتّحاد بِالرَّب، بشكلٍ أسهل، لأنه طريقٌ قصيرٌوكاملٌ وآمِن ١١٧
أ: فهو طريقٌ سهلٌ ١١٧
ب: إنه طريقٌ قصير..... ١١٩
ج: إنه طريقٌ كاملٌ ١٢٠
د: إنه طريقٌ آمِن ١٢٢
٦ – هذا التكريم يمنحُ حريةً باطنيةً كبيرة ١٢٩
٧ – هذا التكريم يمنح خيراتٍ جزيلةً للقريب ١٣٠
٨ – إنَّ ممارسةَ هذا التكريمِ هي واسطةٌ عجيبة للثَّبات ١٣١
وُجوه كتابية عن التكريم الكامل ١٣٨
رِفقة ويعقوب ١٣٨

أ: قصةُ يعقوب ١٣٨
ب: قصة عيسو ١٤٠
ج – يعقوب رمزُ المختارين ١٤٣
سادسًا- العذراءُ مريم وعبيدُ مَحبَّتها ١٥١
١ – إنها تُحبُّهم ١٥١
٢ – إنها تَرعاهم ١٥٦
٣ – إنها تَقودُهم ١٥٧
٤ – إنها تُدافع عنهم وتُحاميهم ١٥٨
٥ – إنّها تَتشفَّع فيهم ١٥٨
سابعًا- في المفاعيل العجيبة الناجمة
عن هذا التكريم الحُبّي ١٦١
١ – معرفةُ الذات واحتقارُها ١٦١
٢ – الاشتراكُ في إيمانِ مريم ١٦٢
٣ – يمنحُ نعمةَ المحبة المَحضة ١٦٢
٤ – يُعطي ثقةً عظيمةً في الله وفي مريم ١٦٣
٥ – الاشتراكُ في نفْسِ مريم وروحِها ١٦٥
٦ – تحويلُ النفوسِ في مريمِ على غِراريسوع ١٦٦
٧ – يُعطي مجدًا أعظمَ ليسوعَ المسيح ١٦٨
ثامنًا- ممارساتٌ خاصّةٌ بهذا التكريم:
الممارساتُ الخارجية ١٧٢
١ – التكريسُ بعدَ الممارسات التمهيدية ١٧٣
٢ – تِلاوةُ المسبحة الصغيرة ١٧٥
٣ – تعبُّدٌ عميقٌ لِسرِّ التجسد ١٧٥
٤ – محبةٌ كبيرةٌ لتلاوةِ السلامِ الملائكي ١٧٨
٥ – نشيد «تُعظِّم نفسي» ١٨٢
٦ – احتقارُ العالم ١٨٣
في الممارسات الباطنية الخاصّة لراغبي الكمال ١٨٣
١ – أنْ نعملَ بواسطةِ مريم ١٨٤

٢ – أَن نعملَ مع مريم ١٨٦
٣ – أن نعملَ في مريم ١٨٧
٤ – أن نعملَ لأجلِ مريم ١٩٠